تأملات من
وحي القرآن

الطبعة الأولى
1445 هـ /2024 م

اسم الكتاب: تأملات من وحي القرآن
التأليف: هند الورداني
موضوع الكتاب:
عدد الصفحات: 184صفحة
عدد الملازم: 11.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14*21
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-122

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

تأملات من وحي القرآن

تأمُّل/ هند الورداني

دار البشير
للثقافة والعلوم

إهداء

إلى أمي الحبيبة ❤

التي علمتني أن القرآن هو نشريان الحياة،

وأخذتني منذ صغري إلى دار التحفيظ آملةً أن أكون من أهل القرآن،

كتب الله أجرها، وبارك في عمرها، ومتعها بوافر الصحة والعافية.

شكر ومحبة

إلى الغالية «مي» ❤

التي وسعني قلبُها قبل أن تسعنا الأماكن...

وغمرتني بوافر عطفها وحبها،

وشجعتني على كل خير... فكانت كتابة أولى صفحات هذا الكتاب في مكتبتها العامرة

جبر الله قلبكِ، ورضي عنكِ وعن والديكِ - وشملهما بواسع رحمته -، وبارك اللهم في الحبيبن؛ زين الدين وسيف الدين.

مقدمة

القارئ العزيز، سلام الله عليك ورحمته وبركاته

فهذه مجموعة من التأملات كنت قد دوّنتُ أغلبها خلال سنوات رحلتي في طلب القرآن الكريم، وأحمد الله الذي هداني إلى حفظ هذا الصيد الثمين؛ فالأمر كما قيل: «إنما العلم طيرٌ وقيده التدوين». وقد أنعم الله عليّ ببعض الإلهامات وبصرّني بفضله بعددٍ من اللطائف والإشارات القرآنية خلال العمل على هذا الكتاب، فلله الحمد والمنة.

وقد عفكت على هذه التأملات فهذبتها، وحاولت أن أنتقي منها ما يمس واقع الإسلام والمسلمين اليوم، لعلنا أن نضع يدنا على الداء ونبصر في القرآن الكريم الدواء، ثم شفعّتها بالمُنتقَى من مختلف كتب التفاسير بما يخدم كل مقصد وفكرة. فأسأل الله التوفيق إلى ما يحبه

ويرضاه، وأن يرزقني وإياكم الإخلاص في القول والعمل، وأن يغفر لكل من قرأ هذا الكتاب وساعد على نشره، وأن يجعل كتابه الكريم شفيعًا لنا يوم الدين،،، ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: 44].

وكتبه

راجية عفو ربها/ هند محمد الورداني

الإسكندرية

elwardany.hend@gmail.com

التأمل الأول
الكثرة لا تغلب الشجاعة

هل حقًّا ما قيل من أن الكثرة تغلب الشجاعة؟ لقد أكد لنا القرآن في مواضع عدة أن الشجاعة هي التي تغلب الكثرة... لكنها ليست أي شجاعة، إنها الشجاعة الموصولة بمِداد السماء وحُسن الظن واليقين بالله عز وجل. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 249].

ألم ترَ أن قريشًا قد جاءت بخيلها ورَجلها يوم بدر لتستأصل شأفة المسلمين بجيش قوامه يزيد عن ضعفيّ جيش النبي ﷺ؟ وماذا سيفعل ثلاثمائة رجل – خرج أغلبهم مستضعفين مطاردين من أرضهم – أمام ألف صنديد من صناديد قريش أتوا بكامل أسلحتهم وزادِهم عازمين على البطش بهم؟ بل إن النبي ﷺ لم يخرج من الأساس طالبًا قتال قريش، إنما قصد العير المارة بطريق المدينة كي يستعيد المسلمون بعض ما سلبه المشركون من أموالهم؛ إلا أن أبا سفيان بن حرب استشف نية المسلمين من الإغارة على القافلة – وكان شديد الدهاء وكان يومئذ على الشرك – فحوّل طريقها إلى أقصى الغرب من سواحل البحر واستطاع النجاة بها... ورغم وصول القافلة إلى مكة بأمان إلا أن قريشًا أبت إلا

أن تعاقب محمدًا وأصحابه على مجرد تفكيرهم في الحصول على بعض من حقوقهم المسلوبة! ليتحول الأمر إلى حرب ضروس دفعت قريش فيها ثمن غطرستها غاليًا! قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: 7 – 8].

وها قد فاتت النبي ﷺ وأصحابه العير، ووصلهم الخبر بخروج قريش عن بكرة أبيها للقائهم... فماذا فعلوا حيال هذا التحول الخطير؟! لقد وقف رسول الله ﷺ بين أصحابه سائلًا المشورة – كعادة كل قائد أمين لا يستبد برأيه –، فقام أبو بكر وعمر رضي الله عنهما مسارعين إلى تلبية نداء القتال، وقام المقداد بن عمرو – رضي الله عنه – ليؤكد العزم قائلًا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ، وَاللَّهِ لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا، إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)، وَلَكِنْ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فو الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بِرْكِ الْغِمَادِ[1] لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ، حَتَّى تَبْلُغَهُ»...

لكن النبي ﷺ لم يكن يقصد بسؤاله أبا بكر ولا عمر ولا المقداد ولا سائر معشر المهاجرين! وإنما كان ينتظر أن يحر الأنصار جوابًا؛ فقد

(1) بِرك الغِماد: موضع يقع الآن في محافظة البِرك بمنطقة عسير جنوب غرب المملكة العربية السعودية، ويبعد عن المدينة المنورة مسافة 1000 كلم تقريبًا، وقد ذكره المقداد بن عمرو كناية عن بُعد المسافة؛ ليشير أنهم لن يتركوا رسول الله ﷺ مهما حدث.

وقعت بيعة العقبة على أن يمنعوا رسول الله ﷺ ما دام في مدينتهم لا خارجها، وها قد خرجوا إلى بئر بدر وهي وقتئذ خارج حدود المدينة، وقد تحولت العير إلى النفير، فإن اعتذروا عن القتال وقفلوا راجعين فلا ملامة عليهم، وقد فطن سعد بن معاذ - رضي الله عنه - إلى مقصد رسول الله ﷺ فبادر قائلًا: «وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: أَجَلْ، قَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا، عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ. لَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ. فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِ سَعْدٍ، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ»[1]... فما كان للأنصار الذين رضوا برسول الله ﷺ حظًا ونصيبًا أن يتخلوا عنه، وهم أهل الدار والإيمان... ضحَّوا بالغالي والنفيس لنصرة النبي الكريم ﷺ، وما كان للمهاجرين الذين أوذوا في سبيل الله وأخرجوا من ديارهم إلا أن يصبروا مرابطين، فجمع حب الله ورسوله فريقيّ المؤمنين على قلب رجل واحد... فلما كان ما كان ورأى الله عز وجل من قلوبهم الصدق والإيمان أيّدهم بالنصر المبين.

(1) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام، (2/ 378 - 379)، عناية: حلمي بن إسماعيل الرشيدي، دار العقيدة - الإسكندرية، الطبعة الثانية، 1430 هـ - 2009م، عدد الأجزاء 4 (في مجلدين).

وأهلّت بشائر النصر، فنزل النعاس أمنةً وأمان، وهطل المطر غيثًا للقلوب وتطهيرًا للأبدان وشربًا هنيئًا يسقى العطشى والأرض القاحلة كي ما تثبت الأقدام، ثم كان التأييد بالملائكة الكرام يقاتلون مع المؤمنين ويضربون من الكافرين كل بنان. قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 9-13].

قال السعدي - رحمه الله -: ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاسا (يُغَشّيكُمُ)، أي: فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون أَمَنَةً لكم وعلامة على النصر والطمأنينة[1].

ونقل ابن كثير - رحمه الله - عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ لَمَّا خَرَجُوا لِيَنْصُرُوا الْعِيرَ وَلِيُقَاتِلُوا عَنْهَا، نَزَلُوا عَلَى الْمَاءِ يَوْمَ بَدْرٍ، فَغَلَبُوا الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ. فَأَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ الظَّمَأُ، فَجَعَلُوا

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376هـ)، ص: 316، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420هـ 2000- م.

يُصَلُّونَ مُجْنِبِينَ مُحْدِثِينَ، حَتَّى تَعَاظَمُوا ذَلِكَ فِي صُدُورِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَتَّى سَالَ الْوَادِي، فَشَرِبَ الْمُؤْمِنُونَ، وَمَلَئُوا الْأَسْقِيَةَ، وَسَقَوُا الرِّكَابَ، وَاغْتَسَلُوا مِنَ الْجَنَابَةِ، فَجَعَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ طَهُورًا، وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَوْمِ رَمْلَةٌ، فَبَعَثَ اللَّهُ الْمَطَرَ عَلَيْهَا، فَضَرَبَهَا حَتَّى اشْتَدَّتْ، وَثَبَتَتْ عَلَيْهَا الْأَقْدَامُ... وَأَمَدَّ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَكَانَ جِبْرِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ مُجَنِّبَةٍ، وَمِيكَائِيلُ فِي خَمْسِمِائَةٍ مُجَنِّبَةٍ[1].

ثم تأمل بلاء عليّ رضي الله عنه يوم خيبر لتدرك أمارات الشجاعة، وقد قال النبي ﷺ: «لَأُعْطِيَنَّ هذه الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ على يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَه، ويُحِبُّهُ اللَّهُ ورَسولُهُ»[2]، فكانت راية النصر من نصيبه، فأخذها عليٌّ وهو ينشدُ ويقول:

أنـــا الذي ســـمتني أمـــي حَيدرة
كليـــثِ غابـــاتٍ كريـــهِ المنظرة
أوفيهُـــمُ بالصاعِ كيلَ الســـندرة

ثم اشتد على الأعداء، فكان الفتح على يديه.

وحين خرج المسلمون للقاء إمبراطورية الفرس التي اهتزت لها الأرض بجيش متواضع الإمكانات وقلوب شامخة بالإسلام،

(1) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت 774 هـ)، (4/ 23)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1420 هـ - 1999 م، عدد الأجزاء: 8.

(2) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

كتب عمر الفاروق رضي الله عنه إلى عامله سعد بن أبي وقاص وصيةً جامعةً، فقال: «أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله عز وجل أفضل العدة على العدو، وأقوى العدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا من المعاصي منكم من عدوكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصَر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم يكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عُدتنا كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإنا لا ننصر عليهم بفضلنا ولم نغلبهم بقوتنا، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شر منا ولن يُسلَّط علينا وإن أسأنا، فرُبَّ قوم سُلِّط عليهم شر منهم كما سُلِّطَ على بني إسرائيل لمّا عملوا بمساخط الله كفرة المجوس ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: 5]، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم»[1]... واشتدت المعارك بين الفرس والمسلمين لتُسطِّر ملحمة القادسية، والتي انتهت بعد قتالٍ كبير دام أربعة أيام وثلاث ليالٍ، لاحت فيها بشائر النصر للجيش القليل، وذهبت إمبراطورية فارس إلى غير رجعة.

(1) سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - شخصيته وعصره، علي محمد الصلابي، ص: 391، دار العقيدة - مصر، الطبعة الأولى، 1434. هـ - 2013.م.

وقد لخّص الفاروق عمر في رسالته عوامل النصر وأسبابه؛ والتي يقع على رأسها صدق اللجوء إلى الله، واليقين بما عند الله، والعمل بطاعته ومرضاته... فإذا استغنت القلوب عن ربها انقطع المِداد، ولن تنفع يومئذ كثرة ولا عتاد، ولنا في حُنَين العبرة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: 25]؛ فإنه لما قال المسلمون: (لن نُغلَبَ اليوم عن قِلة) جاء التأديب السريع من السماء، فانقلبت موازين القوة، ومادت الأرض تحت الأقدام، وولى المسلمون الأدبار... وهل يغني عن المرء شيء إذا ركن قلبه إلى الأسباب واستغنى عن مسببها الملك الواحد الديّان؟! فلما كانت التوبة وصدق اللجوء عادت الأمور إلى نصابها من جديد وكان النصر من الله القوي المتين.

ومن هنا قال بعض الحكماء: «لا يغلب خصمه من لا يغلب نفسه»، ومن لا يقمع شهواته فهو أبعد من أن يقمع أعداءه، ومن صبر عن معاصي الله فهو الأجدر أن يصبر على شدة القتال واللأواء؛ ولذلك حين خرج طالوت ببني إسرائيل للقاء جالوت وقومه الكنعانيين - وكانوا قومًا عِظام الأجساد كثيروا الأعداد - اختبرهم بفتنة النَهَر ليبلو طاعتهم وصبرهم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [البقرة: 249]. فرجع من بني إسرائيل الكثير ولم يصبر منهم إلا القليل، إلا أنها قِلة عمرت قلوبها

بتقوى الله ونور اليقين والإخلاص، فلجأت إلى ربها بالصدق والدعاء فكان لها الغلبة بإذن الله ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾. قال عز وجل: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: 250-251].

ولا تُرفَع رايات الغلبة إلا بمحاذاة رايات التقوى، ولا يتأتى النصر إلا لقوم نصروا الله ورسوله، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد 7]. أي: «(يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا) وأقَرُّوا بذَلكَ (إنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ) أيْ: يَتَجَدَّدُ لكم نِيَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ وفِعْلٌ دائِمٌ عَلى نُصْرَةِ دِينِ المَلِكِ الأعْظَمِ؛ بِإيضاحِ أدِلَّتِه وتَبْيِينِها وتَوْهِيَةِ شُبَهِ أهْلِ الباطِلِ وقِتالِهِمْ، ويَكُونُ ذَلِكَ خالِصًا لَهُ لا لِغَيْرِهِ مِنَ النِّيّاتِ الفاسِدَةِ المَعْلُولَةِ بِطَلَبِ الدُّنْيا أوِ الشُّهْرَةِ بِالشَّجاعَةِ والعِلْمِ وطِيبِ الذِّكْرِ والغَضَبِ لِلْأهْلِ وغَيْرِ ذَلِكَ (يَنْصُرْكُمْ) فَإنَّهُ النّاصِرُ لا غَيْرُهُ مِن عَدَدٍ أوْ عُدَدٍ فَيَقْمَعُ أعْداءَ الدِّينِ بِأيْدِيكم.

و(ويُثَبِّتْ أقْدامَكُمْ) أيْ: تَثْبِيتًا عَظِيمًا بِأنْ يَمْلَأ قُلُوبَكم سَكِينَةً واطْمِئْنانًا وأبْدانَكم قُوَّةً وشَجاعَةً في حالِ القَتْلِ ووَقْتَ البَحْثِ والجِدالِ، وعِنْدَ مُباشَرَةِ جَمِيعِ الأعْمالِ، فَتَكُونُوا عالِينَ [قاهِرِينَ] في غايَةِ ما يَكُونُ مِن طِيبِ النُّفُوسِ وانْشِراحِ الصُّدُورِ ثِقَةً بِاللَّهِ واعْتِزازًا بِهِ وإنْ تَمالَأ عَلَيْكم أهْلُ الأرْضِ»[1].

(1) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، (18/ 209)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، عدد الأجزاء: 22.

وإذن معيار القرآن الكريم أن «الكثرة لا تغلب الشجاعة»، وإنما النصر منوط بارتباط القلوب بعلّام الغيوب، وإنه مهما كان للمسلمين من كثرة أعداد وعدة وعتاد فإنها لن تغني عنهم شيئا ما داموا بعيدين عن أوامر الله... وانظر إلى شروط النصر في القرآن الكريم وما آل إليه حال المسلمين الآن من الانهزام في كل مكان... وتأمل!

التأمل الثاني
ابن وقته

إنما الوقت عمر الإنسان، وهو الكنز المهدور الذي يغفل عنه كثير من الناس. يقول النبي الكريم - صلوات الله وسلامه عليه -: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس؛ الصحة والفراغ»(1).

وأنشد أمير الشعراء شوقي، فقال:

دَقّاتُ قَلبِ المَرءِ قائِلَةٌ لَهُ　　إِنَّ الحَياةَ دَقائِقٌ وَثَواني
فَارفَع لِنَفسِكَ بَعدَ مَوتِكَ ذِكرَها　　فَالذِكرُ لِلإِنسانِ عُمرٌ ثاني

وقد أشار الله عز وجل في كتابه الكريم إلى أهمية الأوقات، وكيف أنه سبحانه وتعالى قد خلق الشمس والقمر ليتعلم الإنسان كيفية حساب الزمان. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5]. يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله: «فَمِنْ مَعْرِفَةِ اللَّيَالِي تُعْرَفُ الْأَشْهُرُ، وَمِنْ مَعْرِفَةِ الْأَشْهُرِ تُعْرُفُ السَّنَةُ. وَفِي ذَلِكَ رِفْقٌ بِالنَّاسِ فِي ضَبْطِ أُمُورِهِمْ وَأَسْفَارِهِمْ وَمُعَامَلَاتِ أَمْوَالِهِمْ وَهُوَ

(1) أخرجه البخاري (6412).

أَصْلُ الْحَضَارَةِ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مُعَرَّفَةَ ضَبْطِ التَّارِيخِ نِعْمَةٌ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى الْبَشَرِ»[1].

وجعل عز وجل في تعاقب الليل والنهار آيات باهرات، وفيه الإنعام بتقلب حال بني آدم ما بين الشغل والفراغ؛ ففي النهار السياحة في الأرض، وفي الليل الراحة والنوم. ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: 73].

وفيهما أيضًا الاستدراك لمن أسرف على نفسه بالعصيان، يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مَغْرِبِهَا»[2]. وفي الكتاب الكريم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: 62].

غير أن القرآن الكريم لم يكتفِ بالتأكيد على أهمية الأوقات وإنما أرشد الإنسان المسلم إلى كيفية استغلالها على الوجه الأمثل؛ فقُسِّمَت الصلوات الخمس على مدار اليوم والليلة، وبمواقيتٍ محددة تساعد المرء على ضبط جدول أعماله، وتنظيم مواعيد نومه واستيقاظه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: 103].

---

(1) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (5/ 315)، دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس ودار ابن حزم ببيروت، الطبعة الأولى 1443هـ - 2021م، عدد الأجزاء 12.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه: (2759).

ثم سنَّ القرآن قاعدة عظيمة لا غنى عنها لكل من رام النجاح، وهي التي أشار إليها بعض أهل التصوف بقولهم أن المؤمن «ابن وقته»، وتعني: أن يعطى المسلم كامل تركيزه وجهده للعمل الذى بين يديه ولا يشتت ذهنه بالتفكير فى أمر آخر مما لم يَحِن وقته بعد.

«فإن العامل إذا كان منشغلا بعمله الذى هو وظيفة وقته وقصر عليه فكره وظاهره وباطنه نجح وتم له ذلك العمل، وإن نظر وتشوقت نفسه إلى أعمال أخرى لم يحن وقتها بعد، فترت عزيمته وانحلت همته وصار نظره إلى الأعمال الأخرى ينقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمة عليه، وربما كان الثانى متوقفا على الأول فى حصوله أو تكميله؛ فيفوت الأول والثانى، بخلاف من جمع قلبه وقالبه وصار أكبر همه القيام بعمله الذي هو وظيفة وقته، فإنه إذا جاء العمل الثاني فإذا هو قد استعد له بقوة ونشاط وتلقاه بشوق وصار قيامه بالأول معونة على قيامه بالثاني»[1].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 246]. فإن بنى إسرائيل حين انشغلوا عن أوامر الله وتطلعوا إلى ما لم يُفرَض عليهم بعد من القتال

(1) القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبدالرحمن بن ناصر السعدى، ص: 111، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، 1420. هـ - 1999.م.

ضيعوا كلا الأمرين، ولو أنهم فقهوا لعلموا أن في الأمر بكف الأيدي من تربية النفوس وشحن القلوب وتقوية الأبدان ما يهيئهم للاستعداد للجهاد في سبيل الله، لكنهم لما تعجلوا وضيعوا واجب وقتهم ضاعت عزيمتهم، ولم يضطلعوا بما تمنوا حين أتاهم.

ولذلك يقول الحق جل وعلا في موضع آخر: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: 66].

«أى: ولو أنهم فعلوا ما وُظِّف عليهم فى كل وقت بحسبه فبذلوا همهم ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه ولم يكونوا بصدده، لكان خيرا لهم من المخالفة وأشد رسوخا لإيمانهم وأعظم ثوابا وسبيلا لهدايتهم الصراط المستقيم الذى فيه سعادتهم وفلاحهم. وهذا الذى ينبغى للعبد أن ينظر إلى الحالة التى يلزمه القيام بها فيكملها، ثم يتدرج شيئا فشيئا حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل فى أمر الدين والدنيا، وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفريق الهمة، وحصول الكسل وعدم النشاط»[1].

وإن المؤمن ليتعامل مع وقته على أنه كنزه الثمين وعمره الغالي ومنحة ربانية من البارى يتزود بحُسن استغلالها من الخيرات بما ينفعه في دينه ودنياه. وقد ورد عن الحسن البصري – رحمه الله – قوله: «يا

(1) تيسير الكريم الرحمن، ص: 185.

ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يومٌ ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب بعضك أن يذهب كلك».

فانظر إلى منهج القرآن في الحفاظ على الأعمار ومراعاة واجبات الأوقات، وما بُلِيَ به الناس الآن من الانغماس في التفاهات والتشتت في دوامات التمنِّي والملذات، ثم صارح نفسك وحدد إلى أي الفريقين تنتمي: (أبناء الأوقات أم مضيعي الأعمار)؟! وتأمل!

التأمل الثالث
قد أفلح من زكاها

وقع أطول قسم في القرآن الكريم في سورة الشمس، في دلالة واضحة على مركزية القضية التي تعالجها السورة الكريمة؛ فقد توالت ثمانِ آياتٍ يقسم فيهن الله عز وجل بآياته الباهرات ومخلوقاته العِظام بأن الفوز والفلاح لمن زكّى نفسه واتبع مكارم الأخلاق، وأن الخيبة والخسار لمن خبثت نفسه واتبع هواه. قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 1-10].

والتزكية من الزكاة، وهي في اللغة: النماء، ومنه زكا المال يزكو. وقيل: الطهارة. ومعناها في الشرع: قدر مخصوص من مالٍ مخصوص في زمن مخصوص. وقيل: هو النمو الحاصل عن بركة الله تعالى، ولذلك سمي المُخرَج زكاةً، وإن كان فيما يشاهد نقصًا، لما ذكروا من أنه يبارك فيه، ومنه قيل: الزكاة بركة المال. ويقال: زكا الزرع: إذا حصل منه كثرة.[1] ومنها تزكية النفس أي: تطهيرها وتنميتها بالخيرات والطاعات،

(1) انظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم

وهي أحد كبرى القضايا التي تبوأت مكانة عليا في الشريعة الإسلامية، وأَوْلاها رسول الله ﷺ عنايةً شديدة مع الصحابة الكرام؛ إذ هي لبنة أساسية في تمهيد الطريق لبناء أصول العقائد؛ وإنما القلوب محط رحال الإيمان، فكان لا بدّ من العمل على تطهيرها حتى تتهيأ لاستقبال أوامر الله. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]، فإن كانت الأبدان تقوى بالطعام والشراب لمجابهة المشاق؛ فإن القلوب تقوى بالتزكية لمجابهة مكايد الشيطان.

قضى رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عامًا من عمر الدعوة في مكة عاكفًا على صناعة الفرد المسلم وتربية الرجال بمقاليد الإيمان والتزكية والإحسان، يرسِّخُ في النفوس معاني الصدق والإخلاص، ويتدرج بها في مقامات الصبر والرضا واليقين، فيتعلم المرء أن يحب في الله، وأن يبغض في الله ولله، بل وأن يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه... وقد عكف صلى الله عليه وسلم على غرس هذه البذور بصبرٍ ودأبٍ وثبات، حتى إذا ما طابت النفوس بنور الإيمان وأثمرت القلوبُ الثمرات اليانعات؛ فإذا برجالات يتحملون في سبيل الدعوة المشاق، ويخوضون غمار البحار ويقطعون طول الأسفار.

المعروف بالسمين الحلبي (ت 756 هـ)، (2/ 142)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1417 هـ – 1996 م، عدد الأجزاء: 4.

هنالك أدركت تلك النفوس العظيمة التي تخرجت في مدرسة الفضائل المحمدية أن الطريق إلى الله تُقطَع بالقلوب قبل الأقدام، وبتطهير السريرة قبل حلاوة منطق اللسان، وقد استطاع رسول الله ﷺ أن يغرس في داخل كل امرئ مسلم ضميرًا حيًّا يخشى الله عز وجل قبل أن يخشى الحدود والأحكام، وأن ينشئ مجتمعًا إسلاميا قوامه مكارم الأخلاق، وهو الذي قال ﷺ: «بُعِثتُ لأُتَمِّمَ صالِحَ الأَخْلاقِ»[1].

وإنما وصل ما وصل إليه الآن من تدني أحوال المسلمين الأخلاقية بسبب سوء فهم قضايا القرآن المركزية والبعد عن منهج السنة النبوية، ولو تأمل المسلمون كتاب الله لوجدوا أن قضية التزكية هي أحد أهم مقاصد الشريعة، وأنت ترى كيف احتفى بها القرآن بأطول قسم أقسمه الله في كتابه الكريم، وتم ذكرها كذلك في مواضع عدة من الكتاب العزيز. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: 14]، وقال عز وجل: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: 18]، ويقول: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: 76]، ويقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: 32]، وفي سورة التوبة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103].

والعمل على تضخيم القضايا الفرعية وتنحية ما سواها من القضايا الكبرى جريمة في حق الإسلام، وللأسف يحمل إصرها عدد كبير من المنتمين للتيار الديني، وذلك بإغراق طلبة العلم في مسائل الفروع

(1) أخرجه أحمد (8939)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (273) واللفظ لهما.

والخلافات المذهبية التي ماتت أغلبها قبل مئات السنين والتي لم يرث المسلمون منها سوى البغضاء وشق الصف، وقد كان الأجدر بهم قبل الخوض في التفاصيل العلمية أن يهتموا بالصدور الحاملة لهذا العلم والتي ستكون مطالبة فيما بعد أن تنوء بحمل لواء الدعوة بين الناس، فكيف لقلوب أكلها صدأ الجدل والكلام واستمرأت الفرعيات أن تدل القلوب إلى طريق التزكية والرشاد؟ وكيف لفاقد الشيء أن يعطيه؟!

وإنه لما تنحت قضية التزكية جانبًا من نفوس الدعاة تنحت بالتبعية من حياة عموم الناس، فانهمك المسلمون في مظاهر شكلية وتركوا لُب الإسلام، فترى المرء يصلي ويصوم ثم يأتي وقد أكل المواريث، واستحل مال اليتيم، واحتكر السلع، وتعامل بالربا، وأذى جاره، وأطلق لسانه في عورات إخوانه... ليتحول الإسلام - ويا للأسف الشديد - إلى مجرد طقوس شعائرية بعيدة كل البعد عن معاملات المسلمين وحياتهم... وقد دفعت الأمة ثمن بعدها عن مركزية الأخلاق غاليًا، وتمثل ذلك في مشاكل اجتماعية جمة، وانهيار المنظومة الأسرية، وازدياد معدلات الجريمة والانتحار، وانتشار المذاهب المادية. ولو أن الأمة رجعت إلى قواعد المدرسة المحمدية لوجدت فيها دعائم الأمن والأمان، وكيفية صناعة شخصيات إيمانية ناجحة تقوم على دعائمها أسس المجتمعات.

وما زال بالمسلم الحاجة إلى تعاهد قلبه ما دامت به الحياة، وإن الإيمان ليزيد وينقص، فما زال لسانه يلهج بالدعاء إلى الله بالثبات. يقول المَولى تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

[العنكبوت: 69]. قال ابن القيم – رحمه الله –: "علّق سُبْحانَهُ الهِدايَة بالجِهادِ؛ فأكمل النّاس هِدايَة أعظمهم جهادا، وأفضل الجِهاد: جِهاد النَّفس، وجِهاد الهوى، وجِهاد الشَّيْطان، وجِهاد الدُّنْيا. فَمن جاهد هَذِه الأرْبَعَة في الله هداه الله سبل رِضاهُ الموصلة إِلى جنته. وَمن ترك الجِهاد فاتَهُ من الهدى بِحَسب ما عطّل من الجِهاد. قَالَ الْجُنَيْد: وَالَّذين جاهدوا أهواءهم فِينَا بِالتَّوْبَةِ لنهدينهم سبل الْإِخْلَاص وَلَا يتَمَكَّن من جِهَاد عدوه فِي الظَّاهِر إِلَّا من جَاهد هَذِه الْأَعْدَاء بَاطِنا فَمن نصر عَلَيْهَا نصر على عدوه وَمن نصرت عَلَيْهِ نصر عَلَيْهِ عدوه"[1]... فتأمل!

(1) الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت751 هـ)، ص: 59، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، 1393 هـ – 1973 م.

التأمل الرابع
جبر الخواطر

لله عز وجل أسماء حسنى وصفات علا، وصف بها نفسه في كتابه، وتودد بها إلى عباده. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180]. وهو تبارك وتعالى الجبار الذي يجبر الكسر ويسدّ النقص، فيرحم الضعيف، ويغني الفقير، وييسر على المعسر كل عسير، ويجبر المصاب، ويمنن عليه بأنواع التعويض. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: 23]. وقد كان من دعاء النبي ﷺ قوله: «اللهم اغفر لي وارحمني، واهدني واجبرني، وعافني وارزقني»[1].

وقديماً قال بعض العارفين: (إن الله عند المنكسرة قلوبهم)، وقد نزلت سورة كاملة من القرآن يعاتب الله عز وجل فيها نبيه الكريم ﷺ في شأن رجلٍ أعمى، وَذَلِكَ أَنَّ عبد الله بن أم مكتوم أَتَى النبيَّ ﷺ ليسأله في أمرٍ دينه بينما هُوَ ﷺ مشغول بمُنَاجاة رؤساء قريش، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَيَرْجُو إِسْلَامَهُمْ. فَطفق ابْنُ أُمِّ مَكْتُوم ينادي النبي ﷺ وَيقولَ:» يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ»، ويكرر نداءه وَهو لا

(1) أخرجه الترمذي في سننه (284)، والنووي في الخلاصة (1/ 415).

يراه ولَا يَدْرِي أَنَّهُ مُشْتَغِلٌ مُقْبِلٌ عَلَى غَيْرِهِ، حَتَّى ظَهَرَتِ الْكَرَاهِيَةُ فِي وَجْهِ رسول اللَّه ﷺ لِقَطْعِهِ كَلَامَهُ فأعرض عنه. فأنزل الله عز وجل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ [عبس: 1 – 6]. فَكَانَ رسول اللَّه ﷺ يُكْرِمُهُ بعد إذا رآه ويقول: مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي، ويبسط له رداءه، واستخلفه ﷺ عدة مرات على المدينة عند خروجه لغزواته. فانظر إلى الأدب القرآني في احترام ضعفاء المسلمين، وجبر خواطر العجزة والمساكين، وقد كان من الممكن أن يمر هذا الموقف مرور الكرام في منطق العقل؛ فإن للنبي ﷺ العذر في انشغاله بأمور الدعوة، غير أن ظاهر الواقعة يحمل شأنًا آخر قد يوهم للناس تقديم الأغنياء على الفقراء والأقوياء على الضعفاء، وهو ما لا ترضاه شريعة القرآن بأي شكلٍ من الأشكال، فجاء الحزم بإرساء قواعد التعامل مع المستضعفين وأنهم الأجدر بمزيد الاهتمام والتقدير، ثم كان العتاب الجميل لخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم.

ويجبر عز وجل أنبياءه ويتولى في الشدائد أولياءه، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62]، فيناديه يونس عليه السلام في بطن الحوت أن: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، فيستجيب الله وينجيه، ويجبر خاطره بقوم آخرين، مذعنين لنداء الدعوة والتوحيد. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ فَنَبَذْنَٰهُ

بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: 139 - 148].

ويدعوه نوح وقد غُلب، فيأتيه الرد من الجليل أن «انتصر»، فيحل الطوفان العظيم، وينجو نوح برحمة الله ومن معه من المؤمنين. قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: 10 – 14].

ويهفو قلب حبيبه محمد ﷺ إلى البيت العتيق، ويتشوّق إلى الصلاة تجاه قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام، فيجبر خاطره الجبار ويرضيه ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ [البقرة: 144].

وإن الله ليحب من عباده من تخلَّقّ بمقتضى صفاته وعمل بموجبات أسمائه، فهو سبحانه يحب عباده الرحماء المحسنين ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: 134]، ويحض أهل الإيمان على جبر خواطر المنكسرين، ومواساة الضعفاء والمساكين بكافة الأشكال في مواضع عدة من كتابه الكريم، فتارة بالطعام: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: 141]، إذ يثني عز وجل على أهل الإطعام: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [سورة الإنسان: 8 - 9].

وتارةً بالمال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ

عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 261]. ومن الموطن نفسه كان تشريعه عز وجل للصدقات والزكوات.

ثم اتسعت دائرة المواساة لتخرج عن إطار المادة إلى جبر المشاعر وطيب الكلام، فمن لم يملك الطعام أو المال فباستطاعته أن يمتلك حلو اللسان؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ [الإسراء: 28]. أي: «وإما تعرضن- أيها المخاطب - عن ذي قرابتك وعن المسكين وابن السبيل، بسبب إعسارك وانتظارك لرزق يأتيك من الله - عز وجل - فقل لهم في هذه الحالة قولا لينا رفيقا يدل على اهتمامك بشأنهم، ويدخل السرور على نفوسهم، كأن تقول لهم مثلا: ليس عندي اليوم ما أقدمه لكم، وإن يرزقني الله بشيء فسأجعل لكم نصيبا منه.

قال القرطبي ما ملخصه: وهو تأديب عجيب، وقول لطيف بديع، أى لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر غنى وقدرة فتحرمهم، وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند عجز يعرض، وعائق يعوق، وأنت عند ذلك ترجو من الله تعالى فتح باب الخير، لتتوصل به إلى مواساة السائل، فإن قعد بك الحال فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً أى لينا لطيفا.. ولقد أحسن من قال:

إِلَّا تَكُنْ وَرِقٌ يَوْمًا أَجُودُ بِهَا ... لِلسَّائِلِينَ فَإِنِّي لَيِّنُ الْعُودِ

لَا يَعْدَمُ السَّائِلُونَ الْخَيْرَ مِنْ خُلُقِي ... إِمَّا نَوَالِي وَإِمَّا حُسْنُ مَرْدُودِي»[1].

(1) انظر: تفسير القرطبي، (10/ 249)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384 هـ - 1964 م، عدد الأجزاء: 20 جزءا (في 10 مجلدات). وانظر: التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (8/ 334)، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، الطبعة: فبراير 1998 م، عدد الأجزاء 14.

ومن مظاهر الجبر أيضًا في القرآن أن افترض عز وجل للمطلقات نفقة متعة؛ جبرًا لخاطرهنّ المكسور، وإحقاقًا لحقهنّ المصون. قال تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 241].

وفي قسمة المواريث يقول الباري سبحانه: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: 8]. أيّ: إذا حضر قسمة الميراث أولوا القربى ممن ليسوا بوارث أواليتامى والمساكين فأعطوهم شيئاً من المال تطييباً لقلوبهم وتصدقاً عليهم؛ فإن مال التركة مما منّ الله به عليكم دون جهد منكم أو سعي.

وهذه القاعدة القرآنية بجبر خواطر العباد والحثّ على المواساة هي أحد أهم أبواب النجاة من الشدائد، فقد قال الحكماء: (من سار بين الناس جابراً للخواطر... أدركه الله في جوف المخاطر). ويقول رسول الله ﷺ: (صنائع المعروف تقي مصارع السوء)[1].

وبالمثال يتضح المقال، حكى الشيخ محمد الغزالي ذات مرة أحد المواقف المؤثرة التي حدثت معه يوم كان طالبًا بالأزهر الشريف، فيقول رحمه الله: جاءتني (برقية) من البلد تطلب حضوري فورًا، فأدركت أن خطرًا داهم الأسرة، وسافرت وأنا مشتت الذهن، واسودّت أفكاري عندما رأيت دكان أبي – عن بُعد – وهو مغلق.

تحرّكت قدماي بلا وعي إلى البيت، ورأيت أبي يصرخ من «مغص كلوي» أصيب به، والأولاد من حوله حيارى، وقد أعطاه الطبيب

(1) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (2/ 69)، والطبراني (8/ 312).

بعض الأقراص المخدّرة، ولكن الآلام كانت أربى وأقسى، وقالوا: لا بد من جراحة تستخرج ما في الكلى من حصيَّات...

وفتحت الدكان ووقفت مكان أبي أعمل، وأنا خبير بذلك لأني في أثناء الإجازة الصيفية أساعده، ومضت عدة أيام ونحن نتروّى ونتدارس ما نصنع... أجور الأطباء فوق الطاقة، ولو أمكن إعدادها فإن الجراحة يومئذ غير مأمونة العقبى، وقد مات عمٌّ لي في جراحة مشابهة... ماذا نصنع؟

وحاصرني غم ثقيل، وأخذت شخوص الأشياء تتقلص أمام عيني، وثبتت بصيرتي على شيء واحد، الله وحسب! وكأنما كنت أكلم الناس وأنا حالم...

وجاء رجل يشتري بعض الأغذية، ولما قدمتها له قال لي بصوت ضارع: ليس معي ثمن الآن، وأقسم بالله أنه صادق، وأنه غدًا يجيء بالثمن! ووقر في نفسي أن الرجل محرج فقلت له: خذ البضاعة وهي مني إليك... وانصرف الرجل غير مصدّق ما سمع...! أما أنا فذهبت إلى ركن في الدكان، وقلت: يا ربّ، نبيّك قال لنا: "داووا مرضاكم بالصدقة»! فأسألك أن تشفي أبي بهذه الصدقة...وجلست على الأرض أبكي.

وبعد ساعة سمعت من يناديني من البيت – وكان قريباً – فذهبت على عجل وقد طاش صوابي...

وفوجئت بأبي يلقاني وراء الباب يقول: نزلت هذه الحصاة مني – وكانت حصاة أكبر قليلاً من حبة الفول – لا أدري ما حدث، لقد شفيت...!

وفي صباح اليوم التالي كنت في الكلية أحضر الدروس مع الزملاء...إن الذي يجيب المضطر إذا دعاه رحمني ورحم الأسرة كلها، فله الحمد...[1].

فكن على يقين أن كل خير قدمته، وكل خاطر جبرته، وكل قلب واسيته، سيُرَد لك عاجلاً أو آجلاً... وسيأتيك المردود في أحلك المواقف وأضيق الأوقات كي ما ينجيك ويضيء لك الطريق، إضافةً إلى عظم الثواب المدّخر لك عند الله يوم الدين.

أما من آثر البخل واتبع هواه، ومنع خيره عن عباد الله فإنه يُمنَع عنه الخير، فمن حَرَم عُوقِبَ بالحرمان، والجزاء من جنس العمل، كمثل أصحاب الجنة لما عزموا على حرمان المساكين حرمهم الله ما بخلوا به من ثمر البساتين، فأصبحوا وقد غدت جنتهم خرابًا وسوادًا كالليل المظلم ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [القلم: 17 - 33].

(1) مقتطفات من مذكرات الشيخ: قصة حياة الشيخ محمد الغزالي، ص: 173 - 174، مجلة إسلامية المعرفة: مجلد 2 - العدد 7، 1997 م. ويمكن الاطلاع عليه عبر الرابط: https://citj.org/index.php/citj/issue/view/227/219

والعطاء إنما يُبذَل من نفوس آمنت بالله وصدّقت باليوم الآخر، وعرفت أن من وراء الدنيا حساب فاستعدت له بسائر أنواع المعروف والطاعات، وأما نفوس الملحدين وأصحاب المذاهب المادية فقد تعاملوا مع الدنيا كأنما آخر زادهم، فتعسر عليهم العطاء، وجبنوا عن البذل، وآثروا الحرمان، ولهذا كان البخل سمة للكافرين وإخوانهم من المنافقين، وفي القرآن الكريم يقول عز وجل: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: 1 - 3]. ويقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة: 33 - 37].

وعلى الجانب الآخر فقد عُدَّت الصدقة أحد أبرز دلائل الإيمان؛ فإنها لا تخرج إلا عن قلوب آمنت ووثقت بوعد الرحمن، وقد قيل: (من عرف ما يَطلُب هان عليه ما يبذل، ومن أيقن بالخُلف جاد بالعطية). وفي الحديث الشريف يقول رسول الله ﷺ: «الصلاة نور، والصدقة برهان»[1] أي: برهان الإيمان ودليله.

فانظر إلى احتفاء القرآن الكريم بجبر الخواطر، ثم انظر إلى ما بُليت به الأمة الآن من تسلط الأثرة المادية حتى اختفت المشاعر الإنسانية - أو كادت -، وعجز الناس عن أبسط أشكال المواساة ولو بكلمة طيبة! ناهيك عن تملُّص الأثرياء عن بذل الصدقات والزكوات حتى أكل الفقر أغلب شعوب الإسلام... فانظر جيدًا إلى هَدي القرآن وتأمل!

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: (223).

التأمل الخامس
أمة وسطًا

اصطفى الله من نسل إسماعيل رسوله الخاتم، واصطفى أمة الإسلام لرسوله من سائر الأمم، فامتن عليها بشتى فرائد الامتنان؛ فجعل فيها كتابه الكريم، وميزها بالوسطية دون سائر العالمين. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143]. أي: جعلناكم أمة خيارًا عدولًا، وسطًا بين الأمم كلها، في العقائد والعبادات والمعاملات؛ لتكونوا يوم القيامة شهداء لرسل الله أنهم بلغوا ما أمرهم الله بتبليغه لأممهم، وليكون الرسول محمد ﷺ كذلك شهيدًا عليكم أنه بلغكم ما أرسل به إليكم[1].

والوسط اسم لما بين طرفي الشيء، وأوسط الشيء أفضله وخياره، وواسطة القلادة هي الدرة التي في وسطها، وفلان من أوسط قومه أي خيارهم، والوسط يجيء في المعاني المعقولة كما يجيء في الأشياء المحسوسة، قال ابن الأثير في تفسير قوله (خير الأمور أوساطها): «كُلُّ خَصْلَة مَحْمُودَة فَلَها طَرَفَان مَذْمُومان، فإنَّ السَّخاءَ وَسَطٌ بَيْن

(1) المختصر في تفسير القرآن الكريم، لجماعة من علماء التفسير، ص: 22، دار المختصر للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الخامسة، 1440.هـ.

البُخْل والتَّبْذير، والشَّجاعَة وَسَطٌ بَيْن الجُبن والتَّهَوُّر، والإنسانُ مأمورٌ أنْ يَتَجَنَّبَ كُلَّ وَصْف مَذْموم، وَتَجَنُّبُه بالتَّعَرِّي منْهُ والبُعد عَنْه، فكُلَّما ازْدَادَ منه بُعْداً ازْدادَ مِنْهُ تَعَرِّياً. وأبْعَدُ الجهات والمَقادير والمَعاني مِنْ كُلّ طَرَفَيْن وَسَطُهُما، وهُو غَايَةُ البُعْد عَنْهُمَا، فَإذَا كَانَ فِي الوَسطَ فَقَدَ بَعُد عَن الأطْراف المَذْمومةِ بَقَدْر الإمْكان»[1]. وهكذا فإن الإسلام أمة خيّرة معتدلة لا انحراف فيها إلى شيء من الأشياء أو طرف من الأطراف، وبذلك فهي جديرة بحمل الرسالة العالمية كي ما تقود الدنيا ويحتكم الناس إلى قيمها ومثلها العليا.

وهذه الوسطية بمثابة مفتاح التوازن لاستقرار الإنسانية، إذ تقدم شريعة القرآن منهجًا متكاملًا لتقويم الحياة بعيدًا عن شطحات المغالاة ويبوسة المجافاة، ومن أهم القضايا العقدية التي توضح منهج الوسطية في الإسلام هي موقف القرآن من المسيح عيسى ابن مريم – عليهما السلام –؛ إذ وقفت شريعته الغراء في الخط الفاصل بين تفريط اليهود وإفراط النصارى، فموقف اليهود هو التنكّر لنبوة المسيح وقذف عرض مريم الطاهرة العذراء، وأما موقف النصارى فهو ادعاء أن المسيح ابن الله – تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا –، وهنا يقف القرآن من كلا الموقفين موقف الاتزان، فيثبت نبوة عيسى عليه السلام ويطهر ساحة مريم البتول، وفي الوقت نفسه يرد زعم القائلين بألوهيته؛ ليدفع عنه – عليه

(1) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (ت: 606. هـ)، (5/ 184)، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية – بيروت، 1399هـ – 1979م، عدد الأجزاء: 5.

السلام – غوائل المجافين له والمغالين فيه، فما هو إلا نبي جعله الله آية لبني إسرائيل بمجيئه للدنيا بغير أب، وأمه طاهرة، اصطفاها الله تعالى على نساء العالمين. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: 59] أي: ما عيسى ابن مريم إلا عبد من عباد الله أنعمنا عليه بالنبوة والرسالة، وصيرناه مثلًا لبني إسرائيل يستدلون به على قدرة الله حين خلقه من غير أب كما خلق آدم من غير أبوين[1]. وإنما أمر الله إذا أراد شيئا ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

ولم يدَّع عيسى عليه السلام يومًا الألوهية، وما كان له ذلك، بل إن أول ما تحركت به شفتاه حين كلم بني إسرائيل في المهد أن قال: (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ) [مريم: 30]. وفي الحوار الذي دار بين الله عز وجل وعيسى – عليه السلام – في سورة المائدة مزيد تفصيل وتبرئة لنبيه الكريم من هذا الادعاء الأثيم. يقول الباري عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 116 - 118]. وهكذا حققت شريعة القرآن الوسطية العقائدية في شأن المسيح وأمه – عليهما السلام – متجنبة شطحات أهل الكتاب.

(1) المختصر في التفسير، ص: 493.

وجاءت أيضًا وسطية الشريعة الإسلامية في بناء الأسرة، والتي يقع بين جفاء الرهبانية وسبهللة الزنا، ومن العجيب أن المجتمع الغربي قد سقط في كلا الفخَّين، فحينما تمسكت سلطات الكنيسة بطقوس الرهبانية، رأت أنه لا بدّ من تزهيد شعب الله في النساء، فاحتقرت المرأة ووسمتها بأشنع الأوصاف وصبّت عليها شتى اللعنات كي ما تستطيع إبعادها عن طريق الرجال فيسهل التفرغ للعبادة والاستغناء عن الزواج، ثم لما قامت العلمانية في عصر التنوير ضربت بتعاليم الكنيسة عرض الحوائط، وانتقلت بالمجتمعات الغربية من مغالاة الرهبانية إلى فلتات الزنا؛ زاعمةً محاربة تطرف الكنيسة، وأنها بذلك تعيد للمرأة حقها المسلوب في امتلاك جسدها كي تهبه من تشاء متى تشاء - ولو كان حتى مع كلابٍ الشوارع والذئاب -! وإن الإسلام ليقف بين طرفي الصراع متمسكًا بمبادئ العقل والأخلاق ومدافعًا عن المنظومة الأسرية، والتي تفتقر أوروبا الآن إلى أبسط مقوماتها؛ فتدفع فاتورة عقود من الإفراط والتفريط بانخفاض أعداد المواليد... وانتشار الأمراض المناعية والجنسية... وانهيار المنظومة الأخلاقية وتشجيع الشذوذ... واستفحال المادية والرأسمالية، ولو أن البشرية عادت إلى منهج الوسطية والإسلام لوجدت الحل لتلك المعاناة. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: 21]، ولاستبصرت النور في هدي محمد ﷺ، والذي سارع إلى وأد فتنة الغلو في مهدها حين علم بأن نفرًا من أصحابه قد زهدوا النساء، وامتنعوا عن

الطعام والشراب، وتركوا النوم من أجل الصلاة، فقام في الناس خطيبًا قائلا: «ما بَالُ أَقْوَام قالوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي»[1].

والوسطية ديدن المسلمين في جميع أمور حياتهم ومعاملاتهم... كبيرها وصغيرها، حتى في مشيتهم! ففي سورة لقمان يبذل لقمان الحكيم النصح لابنه فيقول: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19]، (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) أي: وكن معتدلًا في مشيك، بحيث لا تبطئ ولا تسرع. من القصد وهو التوسط في الأمور[2].

وفي إنفاقهم؛ إذ يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: 29]. قال الفخر الرازي – رحمه الله –: «اعلم أنه لما أمر سبحانه وتعالى بالإنفاق في الآية المتقدمة علَّمه في هذه الآية أدب الإنفاق، واعلم أنه تعالى شرح وصف عباده المؤمنين في الإنفاق في سورة الفرقان فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: 67] فههنا أمر رسوله بمثل ذلك الوصف فقال: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي: لا تمسك من الإنفاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات... ﴿وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ﴾ أي: ولا تتوسع في الإنفاق توسعًا مفرطًا بحيث لا يبقى في يدك شيء. وحاصل الكلام: أن

(1) متفق عليه، واللفظ لمسلم.
(2) التفسير الوسيط لطنطاوي، (11/ 123).

الحكماء ذكروا في كتب «الأخلاق» أن لكل خُلُقٍ طرفي إفراط وتفريط وهما مذمومان، فالبخل إفراط في الإمساك، والتبذير إفراط في الإنفاق، وهما مذمومان، والخلق الفاضل هو العدل الوسط، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: 143]»[1].

وفي آداب الطعام والشراب يوجه الله عز وجل عباده إلى منهج الوسطية فيقول: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31]. أي: فلا تحرموا أنفسكم طيبات ما أحل الله من الطعام والشراب، ولا تتجاوزوا في تناوله إلى حد الإسراف، ولكن كونوا معتدلين في التعامل مع نعمة الله.

غير أننا نعاني في واقعنا الإسلامي الآن ترويجًا لمصطلح الوسطية بمفهوم آخر مغاير لمعناها الحقيقي، وقد حمل الحداثيون العرب راية ترويج هذا المفهوم الجديد، وذلك لأسباب كثيرة لا تخفى على متأمل، وللأسف لا يسعنا المقام لبيانها ها هنا وإلا خرجنا عن موضوع الكتاب، غير أني سأحاول أن أبينها ضمنيًا، فقد حمل المفهوم الحداثي للوسطية مهمة ترويج مزاعم من التسامح والسلام هي في حقيقتها أقرب إلى الهلامية، بل وتبتعد تمامًا عن جادة الوسط لتقع في أقصى التفريط، وإن من عادة الخطاب التنويري أن يتخذ من العناوين البراقة شعارًا له؛ كالتسامح والوسطية والتجديد والإنسانية، وكلها معانٍ جميلة لا

(1) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، (24/ 284)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ [عدد الأجزاء: 32].

نعترض عليها، وإنما نعترض على ترويجها بفهمٍ مختزلٍ مغلوط لأجل تمرير مقاصد فاسدة من خلالها.

وقد اتخذ التنويريون العرب من مصطلح الوسطية ذريعة لتفكيك العقيدة الإسلامية في نفوس المؤمنين، وتصوير الإسلام على أنه دين هلامي متوافق مع كافة الآراء والمذاهب والأفكار، وأن الجنة مفتوحة على مصراعيها للناس أجمعين ولو كان ألحد الملحدين! وكأن الله قد خلق السماوات والأرض والجنة والنار هباء... فلا عدل ولا جزاء! فاعتمدوا على سياسة التبعيض والاجتزاء، وتمسكوا بجانب الرجاء وحده دون غيره فانحرفوا عن جادة الحق، ولا شك أن من آثر الانحراف وقع إما إلى تفريط أو إفراط مهما ادعى الوسطية أو المثالية.

وقد ادعي التنويريون أن فعلهم هذا إنما بحُسن نية، وأن مقصدهم الدفاع عن الإسلام ضد مناهج التشدد والجماعات التكفيرية، والحقيقة أن الدفاع عن الحق لا يكون إلا بالحق، ومنذ متى يهتم الملحدون والعلمانيون بالدفاع عن الإسلام؟! ولو افترضنا حُسن نيتهم - مع كونه أمر مستبعد - فإنها لا تبرر أبدًا فساد المسلك؛ فكلا الطرفين قد وقع في شَرَكِ المغالاة، فاتخذ التسامحي جانب التفريط، واتخذ التشددي جانب الإفراط، غير أن عوار الثاني ظاهر للعيان، أما الأول فهو محبب إلى النفوس بشعارات براقة ومخدر يدغدغ مشاعر العوام كي ما يلبثوا في سباتهم العميق... والحل في وسطية الإسلام الغراء التي ارتضاها الله لعباده... فانظر وتأمل!

التأمل السادس
أبهذا أُمِرتُم؟!

قد علمت في التأمل السابق حقيقة الوسطية في الإسلام، وأن كل غلو فكري إنما نشأ بالانحراف عنها إما إلى جانب التفريط أو جانب الإفراط، وإن أي فكرٍ مغالٍ أو مجافٍ ليعتمد على منهج التبعيض والاجتزاء، وهو منهج ذميم عابه الله من قبل على أهل الكتاب من بني إسرائيل. قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 85].

وإن القرآن الكريم ليصدق بعضه بعضًا وتتضافر آياته لتشكيل صورته الكاملة، ولكي تستطيع الاهتداء بأنواره فلا بدّ أن تأخذه من جميع جوانبه حتى تصل إلى نقطة الوسط المنشودة؛ فلا ينبغي للمسلم أن يستبد به مقام دون مقام أو حال دون حال، وإن قومًا أغراهم الرجاء حتى أسرفوا على أنفسهم فأتوا الله عز وجل وما لهم من حسنات، وآخرين أقعدهم الخوف حتى آيسوا الناس من رحمة الله، ولو أنهم تأملوا القرآن الكريم لعادوا إلى جادة الاتزان، إن الله تعالى يقول: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: 98].

وإن المؤمن ليعيش في كل أحواله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: 9]. وقد أشار القرآن إلى ضرورة الجمع بين المقامين في كثير من آياته، في تأكيدٍ منه على أنه السبيل الحقيقي إلى التوازن العَقَدي الصحيح، وأدلة القرآن على ذلك أكثر من أن تُحصى؛ فالله سبحانه وتعالى كثيرًا ما جمع في وصف نفسه بين صفات الترغيب والترهيب، يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: 167]، ويقول عزّ من قائل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 147]، ويقول تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49 - 50].

كذلك جمع القرآن بين وصف الجنة والنار، وعرض جزاء المؤمنين وشقاء الفجّار، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: 37 - 41]، ويقول سبحانه: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: 26 - 27]... وغيرها الكثير من الآيات.

وهكذا نجد أن القرآن كان وسطًا في تقديم عقيدة متوازنة بعيدة عن مسالك التبعيض ومآلاتها من الإفراط والتفريط، بما يضمن الاستقرار

النفسي لأتباعه، فلا المسلم بالقانط من رحمة الله فيهلك مع الهالكين، ولا هو بالمؤمل التارك للعمل فيغرق في أماني الأوهام والتسويف، وقد عاب القرآن على أهل الكتاب إفراطهم في الرجاء إلى حدٍ هوى بهم في مهاوي الغرور، يقول الباري عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: 111 - 112]، وعاب على القانطين يأسهم من رحمة الله حتى تخبطهم الشيطان في مسالك الكفر والضلال، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: 87]، ويقول سبحانه أيضًا: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: 56]؛ «لأنه لا ييأس من رحمة الله تعالى إلا القوم الضالون عن طريق الحق والصواب، الذين لا يعرفون سعة رحمته - تعالى - ونفاذ قدرته»[1].

وإن سياسة التبعيض أوقعت المسلمين في حرج كثير، وساهمت في نشر ثقافة المادية والاغترار بالحياة الدنيا، وإني لأجد أحدهم يتشدق ملء فمه بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويسكت! ولو أنه أكمل الآية لعلم أن: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46]، ولا يحسبنّ أحد أنني أُرغِّب في الفقر أو القعود عن طلب الرزق فإن المال من أهم مقومات الحياة، ولكن سياسة تشويه الآيات باجتزائها من أقبح المسالك التي تنم إما عن لؤم أو جهل

(1) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (8/ 56).

العاملين بها، والحل في وسطية القرآن؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص: 77].

ثم نرى دعاة الحريات الفردية والمتقوقعين حول ذاتهم وملذاتهم الذين لا يهتزون لمصائب المسلمين ولا يفكرون في إخوانهم يتمسكون بشدة بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة: 105]... وهنا نتساءل: ألم يسمعوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: 10]؟ أو أولم تقابلهم آية آل عمران التي يثني الله تعالى فيها على أمة الإسلام بقوله: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]. والأمر ليس كما يزعم أهل التبعيض والمجتزئون، فالآية المرادة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [المائدة: 105] لا تتنافى مع مواساة المسلمين أو القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - حال توافرت شروطها ومقوماتها -؛ لأن الآية مخصوصة بالكفار الذين لا ينفعهم وعظ وليست خاصة بالمسلمين، وقد كان يشتد على المسلمين الأوائل موت آبائهم وأمهاتهم على الكفر.

والحقيقة أن الآية على عكس الشائع عنها... فهذه الآية هي أوكد آية في وجوب العمل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال عبد الله بن المبارك، فَإِنَّهُ قالَ: (عَلَيْكم أنْفُسَكُمْ) يَعْنِي عَلَيْكم أهْلَ دِينكم ولا

يَضُرُّكم مَن ضَلَّ مِنَ الكُفّارِ، وهَذا كَقَوْلِه - في عقاب بني إسرائيل -: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 54] يَعْنِي أَهْلَ دينكم. فَقَوْلُهُ: (عَلَيْكم أَنْفُسَكُمْ) يَعْنِي بِأَنْ يَعِظَ بَعْضُكم بَعْضًا ويُرَغِّبُ بَعْضُكم بَعْضًا في الخَيْراتِ، ويُنَفِّرُهُ عَنِ القَبائِحِ والسَّيِّئاتِ، والَّذِي يُؤَكِّدُ ذَلِكَ ما بَيَّنّا أَنَّ قَوْلَهُ: (عَلَيْكم أَنْفُسَكُمْ) مَعْنَاهُ احْفَظُوا أَنْفُسَكم، فَكانَ ذَلِكَ أَمْرًا بِأَنْ نَحْفَظَ أَنْفُسَنا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الحِفْظُ إلّا بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ كانَ ذَلِكَ واجِبًا[1]...

وعلى افتراض أن المقصود بها أهل الملة فإنها لا تتنافى أيضًا مع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هي داخلة في جملتها، «فالهداية التي ذكرها - سبحانه - في قوله: (إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) لا تتم إلا بإصلاح النفس ودعوة الغير إلى الخير والبر. فلا شك أن مما يجب على المؤمنين القيام به: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ إذ لا يكون المرء مهتديا إلى الحق مع تركه لهذه الفريضة - حال توافر ظروفها -، وإنما يكون مهتديا متى أصلح نفسه ودعا غيره إلى الخير والصلاح»[2].

وحمل الآيات على غير معناها وضربها بما سواها من الآيات نهج المحتالين الذين تحكمت فيهم الأهواء وكرهوا ما على أنزل الله على رسوله من الحق، وقد رُوِيَ أَنَّ نَفرًا كانوا جُلوسًا بباب النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقال بعضُهم: ألم يَقُلِ اللهُ كذا؟ وقال بعضُهم: ألمْ يَقُلِ اللهُ كذا؟ فسمِعَ ذلك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فخرَجَ كأنَّما فُقِئَ في

(1) انظر: التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، (12/ 449 - 450).
(2) انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي، (4/ 318 - 319) [باختصار وتصرف].

وَجهه حَبُّ الرُّمَّانِ[1]، فقال: أبهذا أُمِرْتم أنْ تَضْربوا كتابَ اللهِ بعضَه ببعَضٍ؟ إنَّما ضَلَّتِ الأُممُ قبلَكم في مِثلِ هذا، إنَّكم لسْتُم ممَّا هاهُنا في شيءٍ، انْظُروا الذي أُمِرْتم به، فاعْمَلوا به، وانْظُروا الذي نُهيتم عنه، فانْتَهوا عنه[2].

والقرآن في وسطيته لم يخرج عن طبيعته التي وصفها الله تعالى بها: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]، فهو (مَثانيَ) يعرض الأضداد؛ فيبين حال المؤمنين وحال الكفار، ويرغب في الجَنة ويخوّف من النار، فتقشعر القلوب تحت وطأة وصف العذاب ثم تلين فور سماعها لمدى سعة رحمة الله، فتخرج بقلب قد مُلئ بهَدي الوسطية السمحاء وآمن بكل ما جاء به القرآن، متبعين نداء الحق جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: 208].

(1) كناية عن شدة الغضب.

(2) أخرجه شعيب الأرناؤوط في سير أعلام النبلاء (11/ 282)، وقال: إسناده حسن.

التأمل السابع
زينة كل أمر

إن ما لا يُدرَك بالشدة يُدرَك بالرفق؛ فالرفق مفتاح القلوب، وزينة كل الأمور، وإنك لن تزداد من الناس بالشدة إلا بُعدا، ولن تزداد بالرفق إلا حُبًّا. قال تعالى: (فَبِما رَحمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُم وَلَو كُنتَ فَظًّا غَليظَ القَلبِ لَانفَضّوا مِن حَولِكَ فَاعفُ عَنهُم وَاستَغفِر لَهُم وَشاوِرهُم فِي الأَمرِ فَإِذا عَزَمتَ فَتَوَكَّل عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلينَ) [آل عمران: 159]. قال السعدي – رحمه الله –: «أي: برحمة الله لك ولأصحابك، منَّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك. (وَلَو كُنتَ فَظًّا) أي: سيئ الخلق، (غَليظَ القَلبِ) أي: قاسيه، (لَانفَضّوا مِن حَولِكَ) لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيئ.

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟!

أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالا لأمر الله، وجذبا لعباد الله لدين الله»[1].

وقد كان النبي ﷺ رقيق القلب، صافي النفس، أرفق الناس صلى الله عليه وسلم، وأحسن الناس، أرسله الله عز وجل رحمةً للعالمين. تصف رفقه السيدة عائشة رضي الله عنها فتقول: «ما خُيِّرَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ أمْرَيْنِ إلَّا أخَذَ أيْسَرَهُمَا، ما لَمْ يَكُنْ إثْمًا، فإنْ كانَ إثْمًا كانَ أبْعَدَ النَّاسِ منه، وما انْتَقَمَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِنَفْسِهِ إلَّا أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بهَا»[2].

وقد لاقى رسول الله ﷺ من قومه ما لقي، ومر بالكثير من المآسي والصعاب، وتحمل من الأثقال ما تنوء عنه الجبال، إلا أن يوم الطائف كان أشدها عليه؛ إذ عرض نفسه على رؤسائها فلم يجيبوا دعوته، وأغروا به سفهاءهم فرموه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان، وطار الخبر سريعًا إلى قريش فشمت اللئام، وما لهم لا يشمتون وقد مات عنه سنده الكريم وعمه الحبيب أبو طالب! حتى أنه لم يستطع دخول مكة حين أقبل قافلًا إلا في جوار أحد المشركين[3]، ورغم كل لاقاه من أذى نفسي وبدني إلا أن ذلك لم يزده إلا رفقًا بأمته وشفقة

(1) تفسير السعدي، ص: 154.

(2) متفق عليه.

(3) هو المطعم بن عدي، وقد حفظ رسول الله ﷺ هذا الصنيع، فقال ﷺ بعد في أُسَارَى بَدْرٍ: "لو كانَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَنِي في هَؤُلَاءِ النَّتْنَى، لَتَرَكْتُهُمْ له" (أخرجه البخاري: 4024).

بهم، وقد أتاه ملك الجبال في هذا الموقف العصيب يعرض عليه أن ينزل بالقوم العذاب، قائلًا: يا مُحَمَّدُ، إنْ شِئْتَ أنْ أُطْبِقَ عليهمُ الأخْشَبَيْنِ[1]. إلا أن النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يأبى، ويقول: «بَلْ أرْجُو أنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِن أصْلابِهِمْ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ وحْدَهُ لا يُشْرِكُ به شيئًا»[2]... فانظر كيف خرج مطرودًا مرميًا بالحجارة وعاد مكة مستخفيًا في جوار أهل الشرك، ورغم ذلك لم يخطر بباله أن ينتقم لنفسه! فقد كان الرفق سجيته والرحمة ديدنه صلى الله عليه وسلم.

وهو في هذا مقتدٍ بأبيه إبراهيم عليه السلام. يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: 75]. (حليم) أي: غير عجول على الانتقام إلى المسيء إليه. (أوّاه): كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس. (منيب): راجع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة. وهي صفات تنبئ عن الشفقة ورقة القلب[3].

ثم نرى رفق الخليل - عليه السلام - بأبيه إذ يدعوه إلى الإيمان مرددًا (يا أبتِ...يا أبتِ)؛ تحببًا إليه وتطلفًا به، فما يزده جفاء أبيه إلا لينًا ويسرًا، حتى إذا كان الإصرار على الكفر من أبيه كان السلام والاعتزال من إبراهيم. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ

(1) الأخشبان: جبلان عظيمان بمكة.

(2) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(3) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت 1270هـ)، (6/ 301)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ، عدد الأجزاء: 16.

جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا [1] ﴾ [مريم:41-47]. ولو نظرنا لأحد الأغرار في هذا الزمان وهو ينصح أباه وأمه لأخذنا العجب العجاب؛ إنه لشديد الجفاء على أمه وأبيه... شديد الرفق مع من سواهما! وأغلب أبناء المسلمين الآن يجهلون كيفية التعامل مع آبائهم وأمهاتهم، بله والبر بهم، واسألوا دور المسنين ودور إيواء العجزة والمشردين المنتشرة في ربوع الدول الإسلامية لتروي لكم المأساة!

على أن رفق النبي الكريم محمد ﷺ لم يقتصر على أمته، بل وامتد أيضًا إلى أعدائه، فرغم بُغض اليهود له وعدائهم الصريح إلا أنه كان يقابل إساءاتهم بالعفو واللين - إلا بالطبع فيما اقتضى المقام من نقض العهود وإعلان الحروب فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتعامل بالحزم -[2]، عن عائشة رضى الله عنها: « أَنَّ اليَهُودَ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ،

(1) ننوه أن استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه ودعاءه له لم يكن إلا أملاً ورجاءً في إيمانه، فلما مات على الكفر وتبين له أنه عدو لله تبرأ منه. قال تعالى: (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) (التوبة: 114)؛ فإنه لا يجوز الاستغفار للمشركين.

(2) وهو الصواب، أن يكون لكل مقام مقال، وأن توضع الأمور في منازلها الصحيحة، الرفق واللين في موضعه، والشدة والحزم في موضعها بحسب كل موقف وما ينا سبه .

فَقالوا: السَّامُ عَلَيْكَ[1]، قَالَ: وعلَيْكُم، فَقَالَتْ عَائشَةُ: السَّامُ علَيْكُم، ولَعَنَكُمُ اللَّهُ وغَضِبَ علَيْكُم، فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَهْلًا يا عَائشَةُ، عَلَيْكِ بالرِّفْقِ، وإيَّاكِ والعُنْفَ، أو الفُحْشَ، قَالَتْ: أوَلَمْ تَسْمَعْ ما قالوا؟! قَالَ: أوَلَمْ تَسْمَعِي ما قُلتُ؟ رَدَدْتُ عليهم، فيُسْتَجَابُ لي فيهم، ولَا يُسْتَجَابُ لهمْ فيَّ»[2].

ويأسف المرء حين يرى بعض المنسوبين إلى الدعوة وقد أخذوا الشدة أسلوبًا في معاملاتهم والعنف نهجًا في نصحهم، إن القرآن ليأمر بالرفق واللين مع أعتى العتاة... مع فرعون مدعي الألوهية، الذي قالها بملء فِيه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]؛ فيقول الله عز وجل لنبييه موسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 44]، فكيف بمن هو خير منه من أهل الإيمان وكلمة الإسلام؟! ليس هذا زمن الشدة، بل وليس لها مكان في أي زمان؛ فإن الإسلام أبعد ما يكون عنها، والدعوة إلى الله عز وجل أساسها الرحمة واللين. قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

وقد رأيت بأم عيني موقفين لا يمكن أن أنساهما. أولهما: أنني حضرتني الصلاة أثناء طريقي لأداء واجب عزاء في منطقة ما بعيدة عن منزلي، فدخلت لأحد المساجد لأدائها، فلما أن فرغنا من صلاة الجماعة وبمجرد خروجنا شرعت إحدى الفتيات المصليات في خلع

(1) السام أي: الموت (يدعون على النبي ﷺ بالموت).
(2) متفق عليه.

غطاء رأسها لأنها غير محجبة، فإذا بفتاة أخرى تلبس الخمار ويبدو عليها سمت الالتزام تصيح بأعلى صوتها: (ودي جاية تعمل ايه هنا؟؟) وعبارات من شاكلة: (ايه الأشكال دي؟... وغيرها)، والحمد لله أن الفتاة صاحبة الواقعة لم تسمعها أو أعتقد أنها تعمدت ألا تسمعها وأكملت طريقها... ولا أدرى ما الذي غرّ الفتاة صاحبة الخمار لتتحدث بتلك الطريقة الجوفاء؟ ومن هي حتى تصد الناس عن سبيل الله؟ أو تمنع إماء الله من دخول بيوته لأداء الصلاة؟ لقد مكث ثمامة بن أثال – رضي الله عنه – ثلاثة أيام في مسجد رسول الله وهو يومئذ على الشرك، فلما أن خرج أسلم من فوره لِمَا رأى من خُلُق رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام. أفيدخل مساجدنا المشركون ونمنع عنها إخواننا المسلمين لمجرد أن بعض المهووسين وأدعياء الدين يرون أنفسهم أعلى من الناس وأشد منهم طهرًا وإيمانًا؟؟ وما الذي منع تلك الفتاة المُغرَر بها من أن تنصح رفيقة الصلاة برفق ولين؟! أو ما الذي أدراها أن سيختم لها بالخير والثبات وسيختم لغيرها بالمعصية والهلاك؟!! نعوذ بالله من العجب والغرور أو أن نكون فتنة للناس.

أما الموقف الثاني فهو من أحب المواقف إلى قلبي، ذلك أنني كنت أطلب القراءات في أحد المساجد الكبرى في مدينتي الحبيبة الإسكندرية، ومن رحمة الله أن قيّد الله لي من فضله شيخة من أرفق وأحن وأجمل ما يكون[1]، وذات يوم أتتنا طالبة غير محجبة تريد أن تحفظ القرآن، فأتت إلى

(1) أقصد الدكتورة فاطمة الشيخ – بارك الله في عمرها وحفظها ورعاها – مقرئة القراءات العشر بالإسكندرية.

شيختنا وقد اتخذت وضعية الهجوم قائلة لها بكل حزم: «أريد أن أحفظ القرآن معكم، لكن بشرط: أنا لن ألبس الحجاب، ولا يحدثني أحد في هذا الموضوع إطلاقًا»، فقالت لها شيختنا بكل حنو: «نعم حبيبتي، لكِ ما أردتِ» ثم ألحقتها بإحدى الحلقات... وبالفعل حضرت الفتاة في مواعيدها وبدأت في الحفظ، وقد كان يحدث في بعض الأحيان أن ينظر لها بعض فتيات المسجد شزرًا فكانت شيختنا تنهاهن عن ذلك بكل حزم... وما هي إلا أيام قلائل وحدثت المفاجأة - وهي لم تكن مفاجأة بالطبع لشيختنا الكريمة - فقد لبست الطالبة المذكورة الحجاب حتى قبل أن تكمل شهرها الأول معنا، ودون أن نحدثها في هذا الموضوع إطلاقًا مثلما أرادت! وهنا جمعتنا شيختنا بابتسامتها المعهودة وقالت: «أرأيتن يا بنات؟ لو كنت أجبتكن في رعونتكن وعاملتها بالشدة أو أغلظت لها القول حين قالت مقالتها لابتعدت عن المسجد وضاع كل شيء! لقد كنت على يقين أنها سلتبسه بمحض إرادتها لأنها أتت إلى بيت الله طوعًا وحبًّا، وكنت أعلم أنها سترى فيكن من أخلاق القرآن ما يسرُّها، فمبارك لها ولكنّ يا بناتي».

طبعًا البون شاسع بين الموقفين، ولكن كما ترى فالخير كله في هدي القرآن الكريم وهدي محمد صلى الله عليه وسلم إذ يقول الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: 88]. روى جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «مَن يُحْرَم الرِّفْقَ، يُحْرَم الخَيْرَ»[1]؛ ويقول صلى الله عليه وسلم: «إن الله إذا أراد بأَهل بيتٍ خيراً

(1) أخرجه مسلم في صحيحه: (2592).

دلهم على باب الرفق»[1]؛ فالرفق رفيق المؤمن في كل أحواله، في قوله وفعله، ودعوته ونصحه، وحتى في صلحه وهجره! يقول الله عز وجل: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: 10]. والهجر الجميل هو الذي لا أذية فيه.

فانظر إلى ما يُدر الرفق من خيرات... وافقه كتاب الله وتأمل!

(1) أخرجه أحمد (24734) باختلاف يسير، وابن الجعد في ((المسند)) (3453).

التأمل الثامن
كيف حالك في الرخاء؟

يخطئ أغلب الناس حين يظنون أن البلاء مقرون بالمكاره فقط دون غيرها؛ فحقيقة الدنيا أنها دار امتحان في كل أحوالها، والابتلاء كما يكون بالشر يكون بالخير. قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35]. أي: «نختبركم بالشر والخير، بالشدة والرخاء والصحة والسقم والغنى والفقر، وقيل: بما تحبون وما تكرهون، فتنة، ابتلاء لننظر كيف شكركم فيما تحبون، وصبركم فيما تكرهون، وإلينا ترجعون»[1].

فلا يظنّ من فُتِحَت له أبواب الدنيا أن له مزيّة عند الله عز وجل أو قربى؛ فقد انقلب الترف في حق (صاحب الجنتين) إلى نقمة؛ إذ بعثه على الكفر والطغيان: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: 35-36]، وليست الأموال أو المناصب

(1) معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: 510هـ)، (3/ 288)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت، الطبعة: الأولى 1420 هـ، عدد الأجزاء: 5.

والأولاد بمعيار لقياس رضا الله عن العبد، ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: 37]؛ فالله عز وجل يعطي الدنيا لمن أحب ومن لا يحب، وهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب. قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8]. أي: «عن النعيم الذي خوَّلتُمُوه في الدنيا فلم تشكروا الله عليه وكان به بَطَرُكم»[1].

وقد أوتي نبي الله سليمان من المُلكِ والنعماء ما لم يؤتَ أحدٌ من قبله؛ فسخر الله له الريح والجن وعلمه لغة الدواب والطير وآتاه من كل شيء، ورغم هذا الترف العظيم إلا أنه أدرك - عليه السلام - أن الرخاء دربٌ من البلاء، وأن الشكر سبيل الحفاظ على النعماء، ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي﴾ [النمل: 40]، فنسب الفضل لصاحب الفضل عز وجل، الذي لا يضره كفر ولا يزيده الشكر.

وأما قارون فقد قتله الغرور، فتناسى فضل الله عليه، وانتفخ وانتشى ليقول بكل فخر: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: 78]، فكان جزاؤه أن خسف الله به الأرض، ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [القصص: 82].

«قال بعض العلماء: إن الابتلاء بالخير أشد وطأة. فكثيرون

(1) التحرير والتنوير، (12/ 808).

يصمدون أمام الابتلاء بالشر ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف، وقليلون هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة.

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان، فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل. وقليلون هم الذين يصبرون على الثراء ومغرياته وما يثيره من أطماع.

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح، وقليلون هم الذين يصبرون على الدعة، ولا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال.

إن الابتلاء بالشر قد يثير الكبرياء، ويستحث المقاومة ويجند الأعصاب لاستقبال الشدة..

أما الرخاء فقد يرخي الأعصاب ويفقدها المقاومة.. إلا من عصم الله...»[1].

وقد أوضحت سورة سبأ أن الساقطين في اختبار النعماء كثيرون، وأن البطر والكبر سبب في هلاك الأمم وتبدل الأحوال، وقد كان أهل سبأ في رغدٍ من العيش، تحفُّ قريتهم عن اليمين والشمال جناتٍ وبساتين، يتنعمون بظلالها ويأكلون من ثمارها، ويأتيهم من المطر الغزير فيسقون ويبنون السدود، وكان لهم سد عظيم قرب بلاد مأرب عُرِفَ بأنه أعظم سدود اليمن؛ لسعة تخزينه وقوة بنائه، أُطلِق عليه «سد مأرب»، فكانوا

(1) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (9/ 208).

يعتمدون عليه في الزراعة وقت انحباس الأمطار في الصيف والخريف. ثم إن الله أَمَّنَهم، فبلغوا من الحضارة والعمران مبلغًا كبيرا، إذ كانوا يسافرون من اليمن إلى قرى الشام آمنين مطمئنين في ساعات الليل والنهار دون الحاجة إلى حمل الزاد، ولا يخشون لصوصًا أو سباعًا؛ فقد كانت قراهم متقاربة على طول الطريق، كلما قطعوا مسافةً وجدوا دورًا للاستراحة، فيطعمون ويسقون ويبيتون - إن شاءوا - ثم يكملون رحلتهم في يسرٍ وأمان، وقد استمر الأمر على هذا الحال حتى تبدلت عليهم ببطرهم النعماء. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: 15-19].

فلما أعرضوا عن أمر الله، واستحوذ عليهم الكبر والمادة والاستعلاء تحدوا بقوتهم البشرية قوة الإله داعين المولى في استخفاف أن يذهب عنهم النعماء، ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، فأرسل الله عليهم سيل العرم فتهدَّم سدهم وغرقت بيوتهم وزالت قراهم، ثم أعقبه جفاف شديد حوّل حدائقهم الغنّاء إلى أراضٍ بوارٍ قاحلة، فتفرقوا

شيعًا في شتى البلاد بحثًا عن مواطن الزرع والماء، فكانوا مضرب المثل في خفة العقل والتشرذم في بقاع الأرض، حتى قالت العرب: «ذهبوا أيدي سبا، وتفرّقوا أيدي سبا. أي تفرّقوا تفرقًا لا اجتماع معه»[1]. فجعلهم الله عبرة في كل زمان على تقلب الأحوال. قال الأعشى:

وفي ذاكَ للمؤتسي أسوةٌ ... ومأربُ عفا عليها العَرِم

واستفحال النعمة قد يحمل طابع الإملاء، والاستدراج بالنعم من سنن الله التي أعدّها لكل من كفر بنعمته وطغى. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]. «أي: فلما تركوا ما وعظوا به فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ من رخاء الدنيا وسرورها، حتى إذا ظنوا أن ما كان نزل بهم – من الشدة من قبل –، لم يكن انتقاماً، وما فُتح عليهم، باستحقاقهم، أخذناهم بغتة، أي: فاجأهم عذابنا»[2].

ولذلك فإنه متى ما ظهرت في النفس – أو في الأمم – نبرة الاستحقاق كان الإيذان بتبدل الرخاء، ولهذا يتوجب على المرء المسلم أن يراقب قلبه دائمًا ليزيح عنه أتربة الغفلة لئلا تتراكم فيحول بينه وبين النعماء سدود من نزعات الاستحقاقية، بل وإن كان في إمكانه

(1) انظر: مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت 518هـ)، (1/ 275)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة – بيروت، لبنان، عدد الأجزاء: 2.

(2) زاد المسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597هـ)، (2/ 29)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – 1422 هـ

أن يضع في قلبه مجسًا لقياس قيامه بشكر نعم الله فليفعل! وكل إنسانٍ بنفسه أبصر، ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: 14]، فإن وجد أن فتوحات الخير قد صاحبها شكره استبشر واطمأن. وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»[1]. وإن وجد أن تلك الفتوحات صاحبتها منه الغفلة انتبه ورجع قبل أن يفوت الأوان، وقد نعى الله على طائفة من الكافرين فقال: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 54-56]. أي: «أَيَظُنُّ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورُونَ أَنَّ مَا نُعْطِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِكَرَامَتِهِمْ عَلَيْنَا وَمَعَزَّتِهِمْ عِنْدَنَا؟! كَلَّا لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ، لقد أخطؤوا في ذَلِكَ وَخَابَ رَجَاؤُهُمْ، بَلْ إِنَّمَا نَفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجًا وَإِنْظَارًا وَإِمْلَاءً؛ وَلِهَذَا قَالَ (بَل لَا يَشْعُرُونَ)»[2].

وقد خُتِمَت آيات قصة سبأ بقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ)، واختص هاتين الصفتين (الصبر والشكر) دون غيرهما في إشارة إلى الخُلُقين اللذين يتوجب على المؤمن أن يتخلق بهما في كل أحواله؛ فهو إما في صبر على المكاره، وإما في شكر على النعم. يقول رسول الله ﷺ: "عَجَبًا لأَمْرِ المُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وليسَ ذاكَ لأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكانَ خَيْرًا له، وإِنْ أَصابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكانَ خَيْرًا له»[3].

(1) أخرجه ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة (3/ 3)، والألباني في صحيح الأدب المفرد: 229.
(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، (5/ 479).
(3) أخرجه مسلم في صحيحه: (2999).

وقد وعد الله لمن شكر من عباده بالمزيد ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: 7].

قال ابن عطاء الله السكندري: «من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها»... فانظر إلى حالك في الرخاء وتعاملك مع النعماء... إلى أي الفريقين تنتمي؟؟ إلى من أدركوا الحقيقة فقالوا: (لِيَبلُوَني أَأَشكُرُ أَم أَكفُرُ)؟ أم إلى أرباب قارون وأهل سبأ القائلين: (إِنَّما أوتيتُهُ عَلى عِلمٍ عِندي)؟ وتأمل!

التأمل التاسع
كيف حالك في الشدة؟

إن الدنيا لا تخلو من هم وغم؛ فهي دار البلاء والنقص، وكأسها دائر على الجميع... المؤمن والكافر، الغني والفقير، والوزير والخفير. وإني لأعجب من أناسٍ قد حسبوا الدنيا مستقرهم وخالص متاعهم ولم يدركوا أن خيرها زائل، ومتاعها تنغيص، وحلوها تكدير، وكثيرها قليل، وطبعها التقلب والتغيير، إذا أقبلت أدبرت، وإذا والت تولّت، فمن ملك السلطة ذهبت عنه الصحة... ومن ملك الصحة ذهب عنه المال... ومن ملك المال ذهب عنه الأحباب... وهكذا دواليك، لا تغر إلا الغرير، ولو كانت تزن عند الله جناح بعوضة لَمَا سقى كافرًا فيها شربة ماء، يقول تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمًا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: 45]. قال السعدي - رحمه الله -: «يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أصلا ولمن قام بوراثته بعده تبعا: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار. وأن مثل هذه الحياة

الدنيا، كمثل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، تنبت من كل زوج بهيج، فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيما تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء ترابا، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح، أو سيئ أعماله، هنالك يعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات»[1].

وقد بيّن لنا القرآن أن الناس في تعاملهم مع الشدائد على ثلاثة أحوال:

أولًا: الغافل اللاهي

ثانيًا: اللئيم الناكر

ثالثًا: المنيب الصابر

(1) تفسير السعدي، ص: 478.

أولاً: الغافل اللاهي

من لم تقرِّبه الشدة إلى الله فمتى سيقترب؟! ومن لم يكن الله ملجأه عند المصيبة فإلى من يلتجئ؟! ومن العجيب أن يغفل الناس عن ربهم حال النعماء مع كونه المتفضل عليهم، ولكن الأعجب منه أن يغفلوا عنه في البليّة وهو الوحيد القادر على دفعها عنهم! ولهذا عاب سبحانه وتعالى على أصحاب هذا المسلك فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: 76]. أي: «ولقد اختبرناهم بأنواع المصائب، فما تذللوا لربهم ولا خضعوا له، وما دعوه خاشعين ليرفع عنهم المصائب عند نزولها»[1].

وإن الله إذا رأى من عباده بطرًا واستكبارًا وغفلةً مستحكمة عاقبهم بصنوف البلاء لعلهم يستفيقوا من سكرتهم ويرجعوا إليه. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41]. والإنسانية الحديثة قد خضعت لها أسباب الأرض فتفوّقت في العلوم وسائر الصناعات لكنها قطعت صلتها بالله، فكان جزاؤها أن سلّط الله عليها أنواع البلاء، فسُفِكَ الدماء، وظهرت فيها الأمراض المستعصية، وانتشرت الملوثات التي لم يسلم منها بر ولا بحر ولا جو، فتغير المناخ وارتفعت حرارة الأرض وجفت الأنهار وازدادت المساحات القاحلة وتعرضت أغلب الدول لخطر الجفاف، وانقرضت العديد من الكائنات.

(1) المختصر في التفسير، ص: 347.

وتلك سنة الله التي لا تحابي أحدًا؛ وإن المسلمين لما استشرت فيهم الذنوب والمعاصي وعزفوا عن كتاب ربهم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم دائرت عليهم الدائرة، فتمكن منهم عدوهم ونزل بهم الغلاء وضربت الزلازل أقطارهم ونُزِعَت عنهم البركات وتجرأ بعضهم على دماء بعض وغيرها،،، لكن الأمل موصول أن يثوبوا إلى رشدهم؛ وإن النصر قادم متى عادوا إلى ربهم.

وكان هَدي رسول الله ﷺ إذا حزبه أمرٌ أن يفزع إلى الصلاة، وفي أحلك الأوقات يلتجئ إلى الله بالدعاء. وإن الاستغناء عن الله علامة الخزي والخذلان، قال ابن القيم: «والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه، والرب تعالى لم يُرد من عبده أن يتجلد عليه بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه»[1]. ولذلك توّعد سبحانه وتعالى المتجلدين عليه، المستكبرين عن رفع أيديهم بالدعاء إليه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60]. «عَنِ ابْنِ عَبّاس أَنَّهُ قالَ: أَفْضَلُ العِبادَة الدُّعاءُ وقَرَأَ الآيَةَ، والتَّوَعُّدُ عَلى الاسْتِكْبارِ عَنْهُ لأَنَّ ذَلِكَ عادَةُ المُتْرَفِينَ المُسْرِفِينَ وإِنَّما المُؤْمِنُ يَتَضَرَّعُ إِلى اللَّهِ تَعالى في كُلِّ تَقَلُّباتِهِ...»[2].

وإني لأشفق على المرء حين أراه مبتلىً بأصناف البلاء فإذا هو ملجأه إلى خرافات الطاقة والجذب أو مصنفات اليوجا

(1) التفسير القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت 751هـ)، ص: 553، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت، الطبعة: الأولى 1410 هـ.

(2) روح المعاني، (12/ 333).

والتربية الروحية وغيرها الكثير من أكاذيب ما يسمى بالتنمية البشرية – المستغنية عن الله عز وجل –، أو هو يدفن نفسه بين ملهيات الدنيا علّه ينسى ما حلّ به من الأسى والأحزان. وما كان أجدره لو بسط سجادة الصلاة ورفع كفيه إلى الله يبث إليه شكواه! وهل يحول بينه وبين الله حائل؟! أو يقف على باب الرحمن مانع؟! إنه متى ما توضأ دخل حضرة الجليل الذي لا غالب إلاه.

وأغلب الناس يبحثون عن سلواهم في الاتجاه الخاطئ؛ إن السعادة والاطمئنان ليسكنان القلوب المتصلة بِمداد السماء، التي مهما تقلبت بها أحوال الدنيا لا تراها إلا ساكنة، قد سكنت إلى الله سبحانه وتعالى وحكمته ورضاه وطاعته، فسعادة أصحابها غير مسلوبة، بل هي معهم أينما حلوا ما داموا موصولين بذي العرش الكريم سبيلًا... قال ابن تيمية – رحمه الله –: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، وإن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة»[1].

وقال بعض العارفين: « مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته».

(1) انظر: الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، ص: 109، تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، دار عطاءات العلم (الرياض) – دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الخامسة، 1440هـ – 2019 م.

وأنشد الشافعي يقول:

حَوَالِيَّ فضلُ الله مـــن كلِّ جانبٍ ... ونورٌ مـــن الرحمنِ يفترشُ الســـما
وفي القلـــبِ إشراقُ المُحبِّ بوَصْلِهِ ... إذا قَاربَ البُشرى وجاز إلى الحِمَى
حَـــوَالِيَّ إينـــاس مـــن الله وحده ... يُطَالعنـــى فى ظُلمـــةِ القلبِ أنجما
أصـــونُ ودادى أن يدنســـه الهوى ... وأحفـــظ عهدَ الحـــب أن يتثلما[1]
ففى يقظتى شوق وفى غَفوتى مُنى ... تلاحـــقُ خَطـــوى نشـــوةً وتَرنُّما

ثانيًا: اللئيم الناكِر

وأما النوع الثاني فهو الذي يتعامل مع ربه عز وجل معاملة اللئام، الذين يترددون إليه في الشدة حتى إذا ما انزاحت عنهم الغمة نكصوا على أعقابهم وأنكروا فضله، كمثل قوم ركبوا البحر فعصفت بسفينتهم الريح، وتقاذفتهم الأمواج، ولاح أمامهم شبح الغرق، فذهب عن خواطرهم في تلك اللحظة العصيبة كل شيء إلا الله عز وجل، فإذا هم يتوبون وإليه بالدعاء يجأرون، فلما أن فُتِحَت لهم أبواب السماء وكتب الله لهم النجاة نسوا عهودهم وكفروا نعمته. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67].

«وإنه لتمر بالإنسان أيام يشعر فيها بالألم والعجز، ويحس أن الأزمات أخذت بخناقه، وأنها - إذا بقيت - فهي قاضية عليه، فيهرع إلى

(1) يتثلما أي: ينقص ويضعف.

الله طالبًا النجدة، ملتمسًا الفرج، ويدعو ويلحّ... وتنكشف الكروب آخر الأمر، فهل تبقى مع المرء حرارة إيمانه؟ وصدق تطلعه إلى ربه؟... أم تفتر حرارته وينسى؟

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: 12]!! وهذا مسلك ينطوي على خِسّة، والواجب أن يتذكر الإنسان من أنقذه في شدته، وامتن عليه بفرجه، وأن يتشبث به السراء كما كان يتشبث به في الضراء.

وقد وصفت سورة يونس هذه الحال مرة بعد أخرى بشيء من التفصيل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس: 22-23].

والواقع أن الناس عند الغرق وإحاطة اللجج بهم من كل ناحية تنقطع آمالهم إلا من الله وحده، فلا ملجأ إلا إليه ولا غوث إلا منه...

لكن لماذا تنسى يده التي أسداها إذا امتن بالنجاة؟ لماذا يعود الناس إلى ذهولهم وكنودهم؟ هذا غدر يجب أن يُعالَج وما يبقي عليه ذو شرف!!

والذين تغمرهم موجات السرور فلا يذكرون غيرها جديرون بما يحل بهم من عقاب، وهذا العقاب ينزل عند قمة النشوة وغمرة الذهول! قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24].

إن المفاجآت الموجعة تطرق على حين غرّة، وتقطع خط التفكير العادي للأفراد والجماعات كما قيل:

وســـالمتكَ الليالي فاغتررت بها وعند صفوِ الليـــالي يحدثُ الكدرُ

والجوائح التي تنتاب الزروع والثمار فتودي بها تحدث عند اقتراب الحصاد، واعتقاد الناس أن المحصول المرجوّ أمكن جناه، بل صار في اليد! لعل ذلك ليكون العقاب أوجع...

ومن حق الناس أن يفزعوا إلى الله إذا مسّهم ضر، ولكن من حق الله عليهم أن يشكروه بعد النجاة، وأن تبقى علاقتهم به قائمة إذا انتهى ما ألجأهم إليه، إنهم لن يستغنوا عنه أبدًا.

والمثل الذي ضربه الله للأرض المزروعة يطّرد في كل شيء من أحوال الناس وشئونهم، وقدراتهم الحضارية فوق ظهر الأرض، فمع الغرور والذهول تجيء ضربات القدر، ويحصد الناس ما بذروا»[1]... نعوذ بالله أن نكون من أمثال هؤلاء.

(1) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، ص: 164 - 165، دار الشروق - مصر، الطبعة الأولى: 1416. هـ - 1995.م.

ثالثًا: المنيب الصابر

وهو الذي أدرك حقيقة الدنيا فلم تزده نكباتها إلا إيمانًا واحتسابًا، وصدقًا وركونًا إلى جناب الله. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 22]. أي: و يوم الأحزاب لما أحاطت قبائل العرب بالمدينة المنورة للفتك بالمسلمين، ونقضت يهود عهدها مع النبي الكريم ﷺ، وصار النساء والذراري في خطر، وقد استبد بهم الجوع والعطش، أتدري ماذا فعلوا؟؟... لم يستسلموا لتلك النهاية، بل أيقنوا أن هذا ما وعدهم الله به من البلاء الذي يعقبه - إن هم صبروا - النصر، وما زادهم ما عاينوه من الشدائد إلا إيمانًا بقدرة الله تعالى، وتسليمًا لقضائه وقدره، وأملًا في فرجه ونصره.

وإن المسلم ليَتَلَمَّح بشائر النصر عند اشتداد الخطب، ويَشْتَمّ نسائم الصبح في ظلمة الليل، ويتراءى له الفرج في خِضَم الكرب، فهو موقن بوعد ربه حين قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: 5-6]، فيحدوه الأمل والإيمان إلى حُسن الظن بالله، ويرى بعين البصيرة اللطف في الأقدار.

إن رياح الشدة تحمل البشرى، والعسر يتبعه اليسر، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 57]؛ فالرياح الهوجاء بشرى بين يدي الغيث والنماء، وتكاثف الغمام يبشر بإمطار السماء، واشتداد الليل يبشر ببزوغ الفجر! ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ

فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الروم: 48 - 50]، فإذا نزل الغيث أحيا موات الأرض وموت القلوب، فتنبت الأرض بالزرع والأشجار، وتنبت القلوب بالأمل والاستبشار، ماحيًا عنها صدأ القنوط.

وفي المصائب والصدمات يظهر كمال التسليم، وعند نزول القضاء يتميز المؤمنين من الساخطين، وقد مَرَّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقالَ لها: اتَّقِي اللَّهَ واصْبِري، قالَتْ: إلَيْكَ عَنِّي، فإنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصِيبَتِي، ولَمْ تَعْرِفْهُ، فقِيلَ لَهَا: إنَّه النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأتَتْ بَابَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقالَ صلى الله عليه وسلم: (إنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى)[1].

والحزن لفراق الأحبة لا يتنافى مع التسليم؛ فقد بكى رسول الله ﷺ لموت ابنه إبراهيم، ولكن التسخط على أقدار الله والانحباس في دائرة المصائب ونكران نعمة الله مذمة، ومغبتها الخسران في الدين والدنيا، وقد قرأنا في صفحات الحوادث عن رجل خسر أمواله في البورصة فقام ليقتل أولاده وزوجه ثم يقتل نفسه! وهنالك من فقد بالموت الأحباب فقام يشق الجيوب ويلطم الخدود ثم يترهبن ويعتزل الحياة والناس! ولو تمكن الإيمان من قلوب هؤلاء لعلموا أن الأمر كله لله، وفي: (إنا

(1) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

لله وإنا إليه راجعون) الراحة وخير المآل. يقول رَسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يقولُ: «ما من عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فيَقولُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:156]، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي في مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لي خَيْرًا منها، إلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ في مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ له خَيْرًا منها»[1].

وإن الله ليُخلِف على تلك القلوب التي أذعنت له في لحظاتٍ يصعب فيها التسليم، فإذا العوض يعقب الصبر المرير، حتى لتتحير العقول من جمال عوض الله وتعجب النفوس من فيض النعماء، وقد قالتها أم سلمة حين مات عنها زوجها بقلبٍ صادق (إنا لله وإنا إليه راجعون) فلم تتخيل أن يخلف الله عليها برسول الله ﷺ. تقول رضي الله عنها: (فَلَمَّا ماتَ أبو سَلَمَةَ، قُلتُ: أيُّ المُسْلِمِينَ خَيْرٌ من أبي سَلَمَةَ؟ أوَّلُ بَيْتٍ هاجَرَ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ إنِّي قُلتُها - تعني: إنا لله وإنا إليه راجعون -، فأخْلَفَ اللَّهُ لي رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ)[2].

فحُقَّ لهؤلاء الصابرين أن يحوزوا البشارة، وأن يمن الله عليهم بألوان المغفرة والرحمة والإثابة. قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155-157].

(1) أخرجه مسلم: (918).
(2) سبق تخريجه.

قال السعدي – رحمه الله –: «فالصابرين، هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة، وصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ وهي: كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره. (قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ) أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين، بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه. بل من كمال عبودية العبد، علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم، الذي أرحم بعبده من نفسه، فيوجب له ذلك، الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك.

ومع أننا مملوكون لله، فإنا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفورا عنده، وإن جزعنا وسخطنا، لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله، وراجع إليه، من أقوى أسباب الصبر»[1].

وقال القرطبي – رحمه الله –: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مَلْجَأً لِذَوِي الْمَصَائِبِ، وَعِصْمَةً لِلْمُمْتَحَنِينَ: لِمَا جَمَعَتْ مِنَ الْمَعَانِي الْمُبَارَكَةِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: (إِنَّا لِلَّهِ): تَوْحِيدٌ وَإِقْرَارٌ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالْمُلْكِ. وَقَوْلُهُ: (وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ): إِقْرَارٌ بِالْهَلَكِ عَلَى أَنْفُسِنَا، وَالْبَعْثِ مِنْ قُبُورِنَا، وَالْيَقِينُ أَنَّ رُجُوعَ الْأَمْرِ كُلِّهِ إِلَيْهِ كَمَا هُوَ لَهُ.

(1) تفسير السعدي، ص: 75.

قَالَ سَعِيدُ ابن جُبَيْر – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى –: «لَمْ تُعْطَ هَذِه الْكَلِمَاتُ نَبِيًّا قَبْلَ نَبِيِّنَا، وَلَوْ عَرَفَهَا يَعْقُوبُ لَمَا قَالَ: يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ»[1].

وإن أمر الله نافذ لا محالة فانظر إلى أي أحوال الشدائد الثلاث التي بينها لك القرآن تركن... وتفحص حالك ثم تأمل!

(1) تفسير القرطبي، (2/ 167).

التأمل العاشر
الحكمة ضالة المؤمن

يقول الله عز وجل: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: 269].

والحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل. وهي مشتقة من (الحُكم) أي: المنع؛ لأنها تمنع الإنسان عن الجهل والضلال، ومنها (حَكَمَةُ الدابة) وهي الأداة التي توضع بين فكيّ الفرس لمنعه من الجموح[1]. وفي الحديث الشريف أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « لَا حَسَدَ - أي: لا غبطة - إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[2]. فهي نعمة من الله تعالى امتن بها على من يشاء مَن عباده من أصحاب العقول النيرة والنفوس السوية الطيّعة التي لا تستكبر عن قبول الحق.

والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أولى بها؛ وقَبول الحكمة من أي شخص كان يقتضي أن يتوفر لدى المسلم عقلًا ناقدًا يستطيع أن يميز بين الحق والباطل والخير والشر. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: 18]. وأل

(1) انظر: عمدة الحفاظ، ص: (1/ 440).
(2) متفق عليه.

في (القَولَ) أل الجنس التي تفيد الشمول، أي أنهم يستمعون إلى كل قول؛ سواء من مؤمن أو كافر، من صديق أو عدو، من غني أو فقير، من عالم أو تلميذ، من كبير أو صغير... ومن ثَمَّ يستخدمون الأداة النقدية لفلترة تلك الأقوال عبر مصفاة العقل؛ لتمييز الخطأ من الصواب والحق من الضلال، غير أنهم لا يكتفون بالإبانة والتمييز بل يبادرون إلى العمل والتصديق. قال تعالى: (الَّذينَ يَستَمِعونَ القَولَ فَيَتَّبِعونَ أَحسَنَهُ): الفاء في (فَيَتَّبِعونَ) للدلالة على المسارعة إلى اتباع أحسن الأقوال، ونبذ ما دونها من الجهل والكفر والترهات.

قال ابن عاشور - رحمه الله -: «أثنى الله عليهم بأنهم أهل نقد يميزون بين الهدى والضلال والحكمة والأوهام، نُظّار في الأدلة الحقيقية نُقّاد للأدلة السوفسطائية. وفي الموصول إيماء إلى أن اتباع أحسن القول سبب في حصول هداية الله لهم»[1].

وقال السعدي - رحمه الله -: (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ) وهذا جنس يشمل كل قول فهم يستمعون جنس القول؛ ليميزوا بين ما ينبغي إيثاره مما ينبغي اجتنابه، فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا)... (وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) أي: العقول الزاكية. ومن لبهم وحزمهم، أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إيثاره، على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة

(1) التحرير والتنوير، (9/ 594).

للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال، حسنها، وقبيحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذى يميز، لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعا لشهوته فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل[1].

والمؤمن يبحث عن الحكمة ولو كانت على ألسنة أعدائه؛ وإننا حين ننتقد الغزو الثقافي الغربي لمجتمعاتنا لا نعني بالتبعية مقاطعة كل ما هو غربي؛ فإن الغرب قد برعوا في العلوم الطبيعية، واستطاعوا أن يذللوا الأرض ومقدراتها لخدمتهم، بينما بقي المسلمون في ذيل الأمم يرسفون في ظلمات الجهل... وكيف سنستطيع النهوض ونحن لا نملك زراعة مُدنا وتصنيع أدواتنا وسلاحنا؟! إن بلدًا كمصر بأرضها الخصبة وجوها المعتدل ونيلها الكبير لهي أكبر مستورد للقمح في العالم!!! ولو اجتزت العالم العربي الإسلامي من شرقه لغربه فلن تجد ولو مصنع واحد لتصنيع السيارات أو أجهزة الكمبيوتر!!

لقد صدّر لنا الغرب ما يريد تصديره فقط من التفاهات والعهر والإلحاد، واستمات في دعم أنظمة التعليم العلمانية المفرَغة من أي فائدة إلا اللمم، وأصر على تسفيه اللغة العربية ودحضها في نفوس أبنائها، ومحو ذاكرة التاريخ الإسلامي... ومع ذلك فإن اللوم لا يقع على عاتق الغرب وحده، بل علينا في المقام الأول؛ لأننا لم نتخلف عن ديننا فقط وإنما تخلفنا عن الدنيا ورضينا فيها بالدنية، وأقعدنا كسلنا وتخلفنا العلمي والصناعي والزراعي عن الاستفادة من خيراتنا، فاستخرجنا

(1) تفسير السعدي، ص: 721.

البترول وتركنا للغرب تصنيعه، وجنينا القطن وتركناهم ينسجون لنا الملابس!! وإن أمة هكذا حالها هل تتوقع أن تتقدم يومًا؟!

إن أي علم طبيعي يستجد في دنيا الناس لهو واجب على أمة الإسلام أن يتعلّموه طالما أن به إقامة دنياهم وتعزيز قواهم؛ ولذلك وجب علينا أن ننقل تلك العلوم ولو كانت على ألسنة ألد أعدائنا... ولو أننا استخدمنا عقولنا وأدواتنا النقدية لاستطعنا أن نحدد ما يتوجب أن نأخذه من الغرب وما ينبغي أن ننبذه!

ولولا البعد عن منهج القرآن وهَدي النبي الكريم ﷺ لما وقعنا في هذا الفشل الذريع، فقد استعان رسول الله ﷺ من قبل بعبد الله بن أريقط ليكون دليله في طريق الهجرة - وكان يومئذ على الشرك -، ولم يمنعه كفره من الاستعانة به على ما فيه خير الإسلام والمسلمين طالما أنه الأعلم بغياهب الصحاري وتضاريس الطريق... ثم إنه جعل ﷺ سبيل فداء الأسارى يوم بدر أن يعلم النفر منهم عددًا من غلمان المسلمين القراءة والكتابة، ولم يستنكف أو يأنف من أن نأخذ العلم أوالحكمة من أفواه الكافرين.

وقد أشار أبو حامد الغزالي في الإحياء إلى الاستفادة من ألسنة الأعداء، فقال: «يَسْتَفيد - الإنسانُ - مَعْرِفَةَ عُيُوب نَفْسه مِنْ أَلْسِنَة أَعْدَائِه؛ فَإِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا، وَلَعَلَّ انْتِفَاعَ الْإِنْسَانِ بِعَدُوٍّ مشاحن يذكره عُيُوبَهُ أَكْثَرُ من انْتِفَاعه بِصَدِيقٍ مُدَاهِنٍ يُثْنِي عَلَيْهِ وَيَمْدَحُهُ وَيُخْفِي عَنْهُ عُيُوبَهُ، إِلَّا أَنَّ الطَّبْعَ مَجْبُولٌ عَلَى تَكْذِيبِ الْعَدُوِّ وَحَمْلِ مَا يَقُولُهُ

عَلَى الْحَسَد، وَلَكِنَّ الْبَصِيرَ لَا يَخْلُو عَنِ الِانْتِفَاعِ بِقَوْلِ أَعْدَائِهِ فَإِنَّ مَسَاوِيَهُ لَا بُدَّ وَأَنْ تَنْتَشِرَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ»(1).

وكذلك يقبل المؤمن الحكمة ولو كانت ممن هو دونه، سواءً في السن أو الرتبة أو حتى الجنس! أما ترى أن أول من علّم بني الإنسان دفن الأموات طائرٌ ضعيفٌ من مملكة الحيوان؟! قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: 31].

قال ابن عاشور: «وهَذا المَشْهَدُ العَظيمُ هو مَشْهَدُ أوَّلِ حَضارَةٍ في البَشَر، وهي مِن قَبيلِ طَلَبِ سَتْرِ المَشاهِدِ المَكْرُوهَة. وهو أيْضًا مَشْهَدُ أوَّلِ عِلْمٍ اكْتَسَبَهُ البَشَرُ بالتَّقْليدِ وبالتَّجْرِبَة، وهو أيْضًا مَشْهَدُ أوَّلِ مَظاهِرِ تَلَقِّي البَشَرِ مَعارِفَهُ مِن عَوالِمَ أضْعَفَ مِنهُ كَما تَشَبَّهَ النّاسُ بالحَيَوانِ في الزِّينَة، فَلَبِسُوا الجُلُودَ الحَسَنَةَ المُلَوَّنَةَ وتَكَلَّلُوا بالرِّيشِ المُلَوَّنِ وبالزُّهُورِ والحِجارَةِ الكَرِيمَةِ، فَكَمْ في هَذِهِ الآيَةِ مِن عِبْرَةٍ لِلتّارِيخِ والدِّينِ والخُلُقِ»(2).

ونبي الله سليمان – عليه السلام – مع كل ما أوتي من ملك وعظمة إلا أنه يقف منصتًا كي يسمع حكمة نملة صغيرة! قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي

(1) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت 505هـ)، (3/ 65)، دار المعرفة – بيروت، عدد الأجزاء: 4.

(2) التحرير والتنوير، (3/ 130).

﴿بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 18-19]. ومن فقه هذه النملة الحكيمة أنها رغم شعورها بالخطر المحدق بها وبقومها إلا أنها أحسنت الظن بسليمان وجيشه؛ فإن مثلهم من أنبياء الله ومن الصالحين لا يؤذون عباد الله ولو كانوا أصغر منهم حجمًا أو أحقر شأنًا؛ فقالت ملتمسةً لهم العذر: (لا يَحطِمَنَّكُم سُلَيمانُ وَجُنودُهُ وَهُم لا يَشعُرونَ)... فلما أن سمع سليمان حكمتها - وكان قد أوتي منطق الحيوان والطير - استشعر نعمة الله عليه، وأناب إلى ربه بالحمد والثناء والتضرع بالدعاء: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ثم لم يزل يقبل النصح والحكمة من الضعيف حتى أتاه الهدهد بنبأ يقين، ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: 20-23].

قال الفخر الرازي: «وفي قول الهدهد لسليمان: (أَحَطتُ بما لَم تُحط به) تَنْبيهٌ لسُلَيْمانَ عَلى أنَّ في أدْنى خَلْقِ اللَّه تَعالى مَن أحاطَ عِلْمًا بما لَمْ يُحِطْ به، فَيَكُونُ ذَلِكَ لُطْفًا في تَرْكِ الإعْجابِ، والإحاطَةُ بالشَّيْءِ عِلْمًا أنْ يُعْلَمَ مِن جَمِيعِ جِهاتِهِ»[1].

بل وقد يُحصِّل المعلم الحكمة من التلاميذ؛ ويسمع العالم ممن ليس بفقيه، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رُبَّ حاملِ فِقهٍ غيرُ فَقيهٍ، وربَّ حاملِ

(1) مفاتيح الغيب، (24/ 55).

فِقهٍ إلى من هوَ أفقَهُ منهُ»[1]. فلا يستكبر أحدٌ أن يأخذ ممن هو دونه في الرتبة.

وموسى - عليه السلام - وهو كليم الله، وأحد أولى العزم من الرسل وأشرف أهل زمانه لم يستكبر أن يضرب في الأرض ليحصل العلم؛ فقد يوجد لدى المفضول ما لا يوجد لدى الفاضل، فتكبد عناء السفر للقاء العبد الصالح كي يتعلم منه الحكمة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: 60-66].

فينبغي للمؤمن أن يكون أحرص الناس على الحكمة، وأن يتواضع لها أينما وجدها، ولذلك حين سئل الفضيل بن عياض - رحمه الله - عن معنى التواضع قال: «يخضعُ للحق، وينقاد له ويقبله ممن قاله، ولو سمعه من صبي قَبِلَهُ، ولو سمعه من أجهل الناس قَبِلَهُ»[2]... فانظر إلى مقالتي وتأملها، وإن وجدت فيها الحكمة فلا تتردد أن تتبعها!

---

(1) أخرجه ابن ماجه (2498).

(2) موسوعة نضرة النعيم في أخلاق النبي الكريم ﷺ، مجموعة من العلماء، (4/ 1268)، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة السادسة، 1431 هـ - 2010 م، عدد الأجزاء: 12.

التأمل الحادي عشر
لسنا معصومين

في القصص القرآني من أحوال الأمم الغابرة ما يحمل العبرة والعظة إلى نفوس المؤمنين، وفي تبيان نهج الأنبياء وصبرهم على أذى أقوامهم ما يثبت قلوب المصلحين. يقول الله عز وجل: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود: 120].

وليس من غرض القصص القرآني تسلية السامعين أو سرد أخبار التاريخ، بل الغرض شد القلوب إلى الخير والفائدة، وقرع الأسماع بالتخويف والموعظة. قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: 3]؛ ولهذا جاءت الرواية القرآنية محورية ومركزة في سردها، بعيدة عن التفاصيل الفارغة، وذلك على غرار الكتاب المقدس؛ فإنك بمجرد فتحه تستشعر وكأنك أمام حكايا أسطورية ودراما تاريخية تفصيلية.

فمثلًا في قصة أصحاب الكهف لم يتطرق القرآن إلى أي من أسماء الفتية أو اسم الملك، ولم يُحدَد اسم المدينة التي وقعت فيها الأحداث ولا أي تواريخ أو تفاصيل، بل وترك حتى عددهم على هيئة استفهام مفتوح رفض أن يجيب عنه الشارع عز وجل! ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ

كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 22]، كل ذلك من أجل أن يؤكد على القارئ والسامع أن الغرض من القصص القرآني هو فقط الاعتبار واتباع الحق وترك مسالك أهل الباطل والضلال.

هذا في الوقت الذي غرق فيه العهد القديم (أي التوراة) في التفاصيل المملة من الأسماء والأوصاف والأماكن وفي بعض الأحيان الأشعار! وأهمل تمامًا جوانب التربية والتذكير فلا تكاد تجد أي ذكر للآخرة – بل وأجزم أنك لن تجد –، وكنت قد أوضحت هذا الأمر من قبل بشيء من التفصيل من خلال عقد مقارنة حول قصة يوسف – عليه السلام – بين الرواية القرآنية والرواية التوراتية، ولكن لا يليق بالمقام أن أعرضها ها هنا، غير أنه بإمكانك أن تجدها في كتابي «اللبنة المتممة» حول دلائل نبوة رسول الله ﷺ، واستعنت بها أيضًا في ورقة بحثية لنقد كتاب (الدراسات القرآنية) للمستشرق الأمريكي جون وانسبرو، أضع رابطها لكم في الهامش[1].

وليس الغرض من استعراض مشاهد هلاك الأمم المكذبة وقصص أهل الكتاب مصمصة الشفاه والنظر إليهم باستعلاء، وإنما يتوجب على المسلمين إدراك مسالكهم لتجنبها وأخطائهم لتوقِّيها. يقول الشاعر:

عرفتُ الشرَّ لا للشـــرِّ لكن لتوقِّيــه ومَن لا يعرفُ الشرَّ مـــن الخيرِ يقع فيه

(1) https://tafsir.net/paper/49

وكان حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - يسأل النبي ﷺ دائمًا عن الشر، يقول - رضي الله عنه -: «كانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَنِ الخَيْرِ، وكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي»[1]. وبهذه العقلية الفذة والنفوس النقية الطيّعة استقبل أصحاب رسول الله ﷺ القصص القرآني، فأدركوا مواطن الداء ووضعوا أيديهم على طرائق النجاة.

واستبعاد مسلمي اليوم أن يصيبهم ما أصاب أهل الكتاب من قبلهم ضرب من الغرور والجهل، واعتقاد أن مجرد دخولهم تحت مسمى الإسلام يخرجهم من دائرة نواميس الكون ضرب من الخيال والوهم؛ فإن لله عز وجل في خلقه سنن جارية لا يحيد عنها أحد، من أخذ بها نجا ومن أعرض عنها انتكس.

وقد عرض القرآن الكريم عددًا من قصص أهل الكتاب لبيان سوء أخلاقهم وفساد منهاجهم؛ حتى يتجنب المسلمون مسالكهم ومآل عاقبتهم؛ لأنهم متى ما أخذوا طريقهم الفاسدة جرت عليهم سنة الله بالاستبدال وأدركهم الضعف والهوان؛ وإنه ليعلوا الكفرة على المسلمين متى ما تساووا في المعاصي والشر؛ وفي اجتناب مسالك المفسدين دفعٌ لخطرٍ عظيم واستبقاء لنعمة الله على عباده المؤمنين. وسنستعرض معًا في هذا التأمل جملة من انحرافات أهل الكتاب كما رواها القرآن، وبالأخص بني إسرائيل؛ لنتجنب مسالك المغضوب عليهم والضالين، ولنعلم جميعًا بأننا لسنا معصومين.

(1) متفق عليه.

جملة من انحرافات
أهل الكتاب كما رواها القرآن

الانحراف الأول:
العنصرية والغرور

إن شعبًا يرى نفسه «ابنًا للرب» وما سواه دهماء من أبناء الناس لهو شعبٌ قد أكله الغرور واستبدت به العنصرية، وأبناء الرب هؤلاء يرون لأنفسهم الاستحقاق؛ فهم أبناء الله المدللين والجنس السامي الرفيع وما سواهم «حيوانات بشرية»، وهو الوصف الذي استخدمه غالانت – وزير دفاع الاحتلال الإسرائيلي – لنعت الفلسطينيين وأبنائهم وتبرير ارتكاب المجازر والمذابح في حقهم!

فيرون في أنفسهم العظمة والفَخَار ويحتقرون من سواهم غاية الاحتقار، فيأكلون أموال الناس بالباطل ويستحلون دماء الأبرياء بلا أدنى شفقة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75]. أي: لا غبار علينا في أكل أموال العرب واستحلالهم؛ فهم ليسوا من بني جلدتنا! فما أحقر الغرور إذ يُفقِدُ المرء الأمانة والشرف!

وقد رد الله عز وجل في كتابه على ادعائهم، وبيّن سبحانه وتعالى سفاهة أحلامهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ

﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: 18]. فليس لله عبادًا مختارين أو أبناء مقربين، والاستفهام في قوله: (قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنوبِكُم) استفهام إنكار؛ فإن كانوا أحباءه كما يدَّعون فإن الحبيب لا يعذب حبيبه، بل هم مآخذون بجناياتهم ومحاسبون على إفسادهم كسائر كل من ظلم وبغى، وخُتِمَت الآية بقوله ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ للدلالة على قدرة الله وعظمته وإحاطته بسائر مناكيرهم وبغيهم، ولتأكيد الوعيد في حق كل من تسوّل له نفسه أن ينتهج نهجهم.

وإنما معيار التفاضل عند الله عز وجل التقوى، وليس القرب منه سبحانه وتعالى حكرًا على عرق من الأعراق أو جنس يرى لنفسه السمو على باقي الأجناس. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

والإسلام رسالة عالمية تخاطب كافة الناس، ولا تمنح العرب ميزة أو أفضلية على ما سواهم من الخلق، وهو السر الذي منح الإسلام الضوء الأخضر ليسيح في الأرض، من ألبانيا والصين وحتى الأندلس وأدرنة، فدخل الناس في دينه أفواجًا لأنهم أحسوا فيه باحترام آدميتهم وانجذابًا إليه بعقولهم وفطرتهم. وهو الدين الذي وقف فيه الرسول الكريم ﷺ ليخطب في قومه في حجة الوداع ويقول: «لا فضلَ لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ، ولا لأسودَ

على أبيضَ -: إلَّا بالتَّقوَى، النَّاسُ من آدمَ، وآدمُ من تراب»[1]. فصدق فيه وصف الله تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

وقد احتقر بنو إسرائيل العرب لكونهم من نسل هاجر الجارية، ورأوا لأنفسهم السؤدد لكونهم أبناء سارة الحرة! وتضافرت تلك العنصرية في كتابهم بعهدَيه القديم والجديد؛ ففي التكوين يأتي القول على لسان سارة: »اطْرُدْ هذِهِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّ ابْنَ هذِهِ الْجَارِيَةِ لاَ يَرِثُ مَعَ ابْنِي إِسْحَاقَ«[2]. ويتفاخر بولس باحتقاره للعرب في رسالته إلى أهل غلاطية، فيقول: «لكِنْ مَاذَا يَقُولُ الْكِتَابُ؟ «اطْرُدِ الْجَارِيَةَ وَابْنَهَا، لأَنَّهُ لاَ يَرِثُ ابْنُ الْجَارِيَةِ مَعَ ابْنِ الْحُرَّةِ»، إِذًا أَيُّهَا الإِخْوَةُ لَسْنَا أَوْلاَدَ جَارِيَةٍ بَلْ أَوْلاَدُ الْحُرَّةِ»[3]. غير أن الإسلام لا يرى للأنساب أي مزية، ولا يوزن لها شيء في ميدان الشفاعة عند الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: 37].

والنبي ﷺ وهو أكرم الخلق وأشرفهم إلا أنه لم يكن ليغني عن أهله وعشيرته شيئًا، فلا أحساب ولا أنساب أمام الله عز وجل، ولذلك لما نزل قوله تعالى ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214] قام صلى الله عليه وسلم في قومه مخاطبًا: «يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا -

(1) أخرجه الألباني في شرح الطحاوية: (361).
(2) التكوين: (21/ 10).
(3) غلاطية: (4/ 30 - 31).

اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شيئًا، يا بَنِي عبد مَنَافٍ لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شيئًا، يا عَبَّاسُ بنَ عبد المُطَّلب لا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شيئًا، ويَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسولِ اللَّهِ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شيئًا، ويَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي ما شِئْتِ مِن مَالِي لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شيئًا»[1]. وأبو لهب وهو عم رسول الله ﷺ إلا أنه في الدرك الأسفل من النار.

والمسلمون متى ما تفشت فيهم العنصرية تفسّخ أمرهم؛ لأنهم سيمارسونها على أنفسهم قبل أي أحد؛ لطبيعة انتشار دينهم في شتى دول العالم وقاراته ومختلف الأجناس، وقد نجح الغرب في تزكية تلك الروح الخبيثة فضربت الأتراك بالعرب والعرب بالأتراك، وتأججت القومية البغيضة في نفوس المسلمين فلا يكاد يعرف المسلم العربي شيئا عن إخوته المسلمين في داغستان وأذربيجان، ولا يهتم بمآسي إخوته في بورما والصين، بل وترتكب المذابح في حق إخوته بأكناف بيت المقدس فلا يهمه سوى أن تظل حدوده التى حدها الغرب له بخطوط وهمية على تقسيمات الخرائط في أمان! فأي هوانٍ هذا؟! وأي عنصرية بغيضة يمارسها المسلمون ضد بعضهم البعض؟!

إن المسلمين - والعرب خصوصًا - في حاجة ماسة لمراجعة أنفسهم، وتصفية نواياهم من أدران الجاهلية؛ فإن سلاح العنصرية سينفجر في وجوهنا قبل أن نوجهه لأي أحد آخر، وقد حذر رسول الله ﷺ من تلك الخصلة البغيضة فقال: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِن أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ

(1) متفق عليه.

لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ في الأحْسابِ، والطَّعْنُ في الأنْسابِ، والاسْتِسْقاءُ بالنُّجُومِ، والنِّياحَةُ»[1].

فليحذر المسلمون من الفخ الذي وقع فيه أهل الكتاب، ولينبذوا العنجهية والغرور، (يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنها زَوجَها وَبَثَّ مِنهُما رِجالًا كَثيرًا وَنِساءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذي تَساءَلونَ بِهِ وَالأَرحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيكُم رَقيبًا) [النساء: 1]، «وَمَن بَطَّأَ به عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُهُ»[2].

(1) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(2) حديث شريف، أخرجه مسلم: (2699).

الانحراف الثاني:
سوء الأدب مع الله عز وجل

وإن استعلاء أهل الكتاب لم يتوقف على بني البشر، بل بلغ بهم الغرور أن يروا لأنفسهم يدًا على الله عز وجل. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: 64]. فيصف اليهود ربنا تبارك وتعالى بالبخل - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا -، وغُل اليد وبسطها مجاز في العربية عن البخل والجود[1].

قَالَ عِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَمُقَاتِلٌ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْتَ مِدْرَاسِ الْيَهُودِ، فَوَجَدَ نَاسًا مِنَ الْيَهُودِ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: فِنْحَاصُ بْنُ عَازُورَا، وَكَانَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِفِنْحَاصَ: اتَّقِ اللَّهَ وأسلم، فو اللَّهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَدْ جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ، فَآمِنْ وَصَدِّقْ، وَأَقْرِضِ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُدْخِلْكَ

(1) انظر: تفسير الكشاف (ومعه الانتصاف ومشاهد الإنصاف والكافي الشاف)، الزمخشري، (1/ 554)، ضبط: مصطفى أحمد، دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي ببيروت، الطبعة الثالثة 1407 هـ - 1987 م، عدد = الأجزاء: 4.

الْجَنَّةَ، وَيُضَاعفُ لَكَ الثَّوَابَ. فَقَالَ فِنْحَاصُ: يَا أَبَا بَكْر، تَزْعُمُ أَنَّ رَبَّنَا يَسْتَقْرِضُنَا أَمْوَالَنَا، وَمَا يَسْتَقْرِضُ إِلَّا الْفَقِيرُ مِنَ الْغَنِيِّ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَإِنَّ اللَّهَ إِذًا لَفَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا مَا اسْتَقْرَضَنَا أَمْوَالَنَا، فَغَضِبَ أَبُو بَكْر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَضَرَبَ وَجْهَ فِنْحَاصَ ضَرْبَةً شَدِيدَةً، وَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَا الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ لَضَرَبْتُ عُنُقَكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ. فَذَهَبَ فِنْحَاصُ إِلَى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ انْظُرْ إِلَى مَا صَنَعَ بِي صَاحِبُكَ؟ فَقَالَ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لأَبِي بَكْر: مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ قَالَ قَوْلًا عَظِيمًا، زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَأَنَّهُمْ - عنه - أَغْنِيَاءُ، فَغَضِبْتُ لِلَّهِ وَضَرَبْتُ وَجْهَهُ. فَجَحَدَ ذَلِكَ فِنْحَاصُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَدًّا عَلَى فِنْحَاصَ وَتَصْدِيقًا لأَبِي بَكْر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: 181][1]. فكان جزاؤهم من جنس قولهم أن كان البخل لصيقًا بهم؛ فهم أشح خلق الله، ولُعِنوا وطُرِدوا من رحمة الله جزاء سوء أدبهم.

وأما النصارى فقد نسبوا لله عز وجل الزوجة والولد، وهي مقالة عظيمة تنم عن سفاهة العقل وانطماس الفطرة؛ فكيف للخالق أن يتساوى بالمخلوق؟! وإذا افترضنا على مضض التساوي - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا - فكيف سيلجأ البشر إلى إله سمته العَوَز؟! وإله

(1) انظر: أسباب النزول، الواحدي، ص: 137، تحقيق: كمال زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 هـ.

يحتاج إلى ولد يسانده لن يستطيع أن يساند أحد! بل مَن كان صفته كذلك واجتاحه النقص غير جدير بأن يكون إله! ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 88-93].

وقد لجأ النصارى إلى عقيدة التثليث لمحاولة إقناع جماهيرهم بمقولتهم الفاسدة، والحقيقة أن عقيدة التثليث تحتاج إلى عقل فولاذي لاستيعابها؛ لأنها ببساطة خارج نطاق العقل! وقد اختار مجمع نيقية[1] إجازة هذا القول الفاسد وفتنة ملايين من الشعب المسيحي لأجل استرضاء الإمبراطور قسطنطين - الذي عششت الوثنية الرومانية في قلبه - لتحقيق مكاسب سياسية ومادية للكنيسة ورجالها على الأرض، ومن ثَمَّ أعلن المجمع حربًا شعواء على كل من نادى بالتوحيد ولبّى نداء العقل باعتقاد أن المسيح بشر رسول، وعلى رأسهم القس آريوس وأتباعه، والذي عانى الاضطهاد والحرمان وأُحرِقَت كتاباته حتى اندثر مذهبه.

وقد كفروا بهذا القول الأثيم. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73]،

(1) مجمع نيقية الأول أو المجمع المسكوني الأول: عُقد هذا المجمع عام 325 م بناء على تعليمات الإمبراطور قسطنطين الأول لدراسة الخلافات في كنيسة الإسكندرية بين آريوس واتباعه من جهه وبين الكسندروس الأول وأتباعه من جهة أخرى حول طبيعة يسوع هل هي نفس طبيعة الرب أم طبيعة البشر، وانتهى المجمع إلى تجريم آريوس ومذهبه والحكم عليه بالحرمان والهرطقة.

ورغم ذلك فإن الله لم يغلق في وجوههم باب التوبة، بل دعاهم إلى الإنابة والرجوع ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 74]، وفي هذا بيان لسعة رحمة الله عز وجل، وباب رجاء لكل من ظلم نفسه، فرغم عظيم مقالتهم وكبير جُرمهم إلا أن الله يغفر ما فات، ويتوب الله على من تاب.

والكتاب المقدس بعيد عن تنزيه الذات الإلهية؛ إذ يتحدث عن الله عز وجل وكأنه فرد من بني إسرائيل، بل وأقل من الفرد العادي! فينسبون له النقص - تبارك وتعالى -، وفي التكوين زعموا أن الله قد ظهر ليعقوب على هيئة رجل، وتصارع يعقوب معه حتى الفجر ليأخذ منه البركة عنوة! والتي اضطر أن يعطيها له الرب لما تغلّب عليه يعقوب! قالوا: «فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ، وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ، وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِهِ، فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ، وَقَالَ: «أَطْلِقْنِي، لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَقَالَ: «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي»، فَقَالَ لَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «يَعْقُوبُ»، فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ»، وَسَأَلَ يَعْقُوبُ وَقَالَ: «أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ». فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ، فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ الْمَكَانِ «فَنِيئِيلَ» قَائِلاً: «لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي»[1].

(1) التكوين (32/ 24- 30).

وهذا الرب الذي غلبه يعقوب في القتال، هو نفسه الرب الذي الذي تعب خلال خلق السماوات والأرض فلجأ إلى الراحة وأخذ قيلولة!! قالوا: «لأَنَّهُ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ صَنَعَ الرَّبُّ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، وَفِي الْيَوْمِ السَّابِعِ اسْتَرَاحَ وَتَنَفَّسَ»[1]! وقد رد الله عز وجل على هذا الزعم البغيض في كتابه الكريم فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: 38]. واللغوب هو الإعياء والتعب. أي: ولقد خلقنا بقدرتنا وعظمتنا السماوات والأرض في ستة أيام وما مسنا من تعب أو نصب.

فهذا جانب لبعض ما ورد من سوء أدبهم مع الله عز وجل، وإن المسلم لينسب إلى الله عز وجل كل صفة كمال وجمال ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180]، وينزه المولى سبحانه وتعالى عن التشبه بأي من مخلوقاته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وأي سوء ظن في الله عز وجل فإنه ناتج حتمًا عن عدم معرفة بالله أو نقص في كمال تنزيهه، وهو سمة للمنافقين والمشركين، الذين يظنون أن الله لن ينصر دينه وعباده المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: 6]، والملحدين في نبوة المرسلين: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ

(1) الخروج (31/ 17).

ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: 91].

والواجب على المؤمن أن يُحسن الظن بالله على كل حال، وأن يلتزم الأدب مع الله عز وجل ومع رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، مبتعدًا عن مسالك المنافقين وكفرة أهل الكتاب.

الانحراف الثالث:
الوثنية

لم يزل أهل الكتاب متأثرين بالبيئات الوثنية التي خرجوا منها حتى اختلطت بأديانهم، فرغم إنعام الله على بني إسرائيل بإنجائهم من بطش فرعون، إذ شاهدوا غرق الطاغية وشق البحر أمامهم بعيونهم، إلا أنهم سرعان ما انطلقوا إلى عبادة العجل! قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: 138-139].

وقد عانى موسى عليه السلام من سفاهة قومه عناءً شديدًا، وبيّنت سورة طه مدى غباء بني إسرائيل في استبدالهم عبادة الله عز وجل بعبادة عجل صنعوه بأيديهم لا يضر ولا ينفع. وذلك أن الله عز وجل كان قد واعد موسى - عليه السلام - أن يؤتيه التوراة بعد أربعين ليلة يصومها، فلما قضى موسى المدة المحددة انطلق إلى جبل الطور لتلقي الألواح، وكان قد استبد به الشوق إلى ربه فعجّل بالسير عن قومه فسبقهم. قال تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ [طه: 83-85]

فلمّا أن بلغ موسى الميقات وتلقى الألواح أعلمه ربه بفتنة قومه بالعجل، فعاد إليهم مسرعًا وقد امتلأ غضبًا وأسفًا جراء فعلتهم الشنعاء. قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه: 86-88]. وفي قوله: (أَلَم يَعِدكُم رَبُّكُم وَعدًا حَسَنًا) استفهام إنكاري؛ إذ أنكر عليهم نسيانهم وعد الله عز وجل بإيتائهم التوراة وما فيها من الهدى والنور وبنصرهم على عدوهم وتمكينهم في الأرض، وقد شاهدوا وعاينوا بأنفسهم هلاك فرعون وقومه وانطباق البحر عليهم بعيونهم! فهل طال بهم الزمن خلال الأيام القلائل التي تركهم فيها موسى لينسوا جميل الله عليهم؟! أم تعمدوا بصنيعهم هذا أن ينزل عليهم غضب الله عز وجل؟!

وقد اعتذروا إلى موسى - عليه السلام - بمعاذير غريبة، تنم عن غباء مستحكَم وجهل مطبق وحنين جارف إلى الوثنية التي عاشوا عليها في مصر الفرعونية، وذلك أنهم كانوا قبل خروجهم من مصر قد سرقوا من الأقباط بالمكر والخديعة أحمالًا من الحلي والمصوغات، ثم إنهم أحسوا بالذنب وتورعوا عنها، فرأوا أن يقذفوها في النار ليتخلصوا منها، وبالفعل فقد ألقوها ولكن ليصنعوا بها عجلًا يتخذوه إلهًا! وقد ظنوا أنه إله موسى الذي نسي أن يطلبه ها هنا عندهم، فذهب ليبحث

عنه عند الطور! قال ابن كثير: «وَحَاصِلُ مَا اعْتَذَرَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ أَنَّهُمْ تَوَرَّعُوا عَنْ زِينَةِ الْقِبْطِ، فَأَلْقَوْهَا عَنْهُمْ، وَعَبَدُوا الْعِجْلَ. فَتَوَرَّعُوا عَنِ الْحَقِيرِ وَفَعَلُوا الْأَمْرَ الْكَبِيرَ»[1].

وقال شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي: «وقولهم هذا يدل على سوء أدبهم مع نبيهم، فضلًا عن بلادة عقولهم، وتفاهة تفكيرهم؛ لأنهم اتهموه - وهو نبيهم الداعي لهم إلى توحيد الله - بأنه مؤمن بألوهية العجل، إلا أنه نسي مكانه، فذهب يبحث عنه... وقد انتكسوا في الوثنية بمجرد فراقه لهم؛ لأن الذل الطويل الذي عاشوا فيه أفسد استعدادهم للخير، وترك في طبيعتهم استعدادًا ضخمًا للانقياد السريع إلى الشر بدون تعقل»[2].

وفي اعتيادهم الوثنية وحنينهم إليها يقول الطاهر ابن عاشور: «وَصَنَعَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ صَنَمًا عَلَى صُورَةِ عِجْلٍ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَدِ اعْتَادُوا فِي مِصْرَ عِبَادَةَ الْعِجْلِ «إِيبِيسَ»، فَلَمَّا رَأَوْا مَا صَاغَهُ السَّامِرِيُّ فِي صُورَةِ مَعْبُودٍ عَرَفُوهُ مِنْ قَبْلُ وَرَأَوْهُ يَزِيدُ عَلَيْهِ بِأَنَّ لَهُ خُوَارًا، رَسَخَ فِي أَوْهَامِهِمُ الْآفِنَةِ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْإِلَهُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي عَبَّرُوا عَنْهُ بِقَوْلِهِمْ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى، لِأَنَّهُمْ رَأَوْهُ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَتَوَهَّمُوا أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الْعِجْلِ (إِيبِيسَ)»[3].

وإن أدنى من له عقل ليرى سفاهة تفكيرهم وسوء فعلهم بعبادة صنم لا يسمع ولا ينطق ولا يضر ولا ينفع، ولم يكتفوا بذلك، وإنما

(1) تفسير القرآن العظيم، (5/ 311).

(2) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، محمد سيد طنطاوي، ص: 510 - 512 [باختصار]، دار الشروق - مصر، الطبعة الثانية، 1420 هـ - 2000 م.

(3) التحرير والتنوير، (7/ 187).

صنعوه على شكل حيوان يُضرَب به المثل في البلادة والغباء ليتخذوه إلهًا (أَفَلا يَرَونَ أَلّا يَرجِعُ إِلَيهِم قَولًا وَلا يَملِكُ لَهُم ضَرًّا وَلا نَفعًا) [طه: 89]، ولكنها الأهواء إذا تمكنت تحكمت، وحب الوثنية إذا أُشرِبَ في القلوب طمس على العقول.

وقد حذّرهم هارون مغبة فعلهم، وكان موسى قد اتخذه خليفة على على بني إسرائيل أثناء غيابه لتلقي التوراة. قال تعالى: (وَلَقَد قالَ لَهُم هارونُ مِن قَبلُ يا قَومِ إِنَّما فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحمنُ فَاتَّبِعوني وَأَطيعوا أَمري) [طه: 90]، إلَا أنهم أساءوا الأدب مع نبيهم وربهم كعادتهم دائمًا وأبدًا فقالوا: (لَن نَبرَحَ عَلَيهِ عاكِفينَ حَتّى يَرجِعَ إِلَينا موسى) [طه: 91]. أي: «سنستمر على عبادة العجل، وسنواظب على هذه العبادة مواظبة تامة حتى يرجع إلينا موسى فنرى ماذا سيكون منه»[1].

وغضب موسى على أخيه وعاتبه عتابًا شديدًا، فأخذ يجره من لحيته ورأسه قائلًا: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: 92-94]. «فناداه هارون بقوله (يَبنَؤُمَّ) لقصد الترقيق والاستشفاع... وابن الأم: الأخ. وعدل عن «يا أخي» إلى «ابن أم» لأن ذكر الأم تذكير بأقوى أواصر الأخوة، وهي آصرة الولادة من بطن واحد والرضاع من لبن واحد»[2].

(1) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (9/ 141).
(2) التحرير والتنوير، (7/ 190).

على أن اجتهاد هارون كان قد هداه إلى ضرورة البقاء بينهم ليهدئ ثورة المؤمنين ضد من انشقوا عليهم بعبادة العجل؛ خوفًا أن يقع بين القوم قتال فتكون الفُرقة، ولذلك آثر أن يبقى ساعيًا بالنصح والإرشاد وتهدئة المناوشات إلى أن يعود إليهم موسى فينظر في الأمر. قال ابن عاشور: «وَهَذَا اجْتِهَادٌ مِنْهُ فِي سِيَاسَةِ الْأُمَّةِ إِذْ تَعَارَضَتْ عِنْدَهُ مَصْلَحَتَانِ مَصْلَحَةُ حِفْظِ الْعَقِيدَةِ وَمَصْلَحَةُ حِفْظِ الْجَامِعَةِ مِنَ الْهَرَجِ. وَفِي أَثْنَائِهَا حِفْظُ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأُخُوَّةِ بَيْنَ الْأُمَّةِ فَرَجَّحَ الثَّانِيَةَ، وَإِنَّمَا رَجَّحَهَا لِأَنَّهُ رَآهَا أَدْوَمَ فَإِنَّ مَصْلَحَةَ حِفْظِ الْعَقِيدَةِ يُسْتَدْرَكُ فَوَاتُهَا الْوَقْتِيُّ بِرُجُوعِ مُوسَى وَإِبْطَالِهِ عِبَادَةَ الْعِجْلِ حَيْثُ غَيَّوْا عُكُوفَهُمْ عَلَى الْعِجْلِ بِرُجُوعِ مُوسَى، بِخِلَافِ مَصْلَحَةِ حِفْظِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ إِذَا انْثَلَمَتْ عَسُرَ تَدَارُكُهَا»[1].

فقبل موسى عذر أخيه، ورجع واستغفر، وقد ورد ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: 151]. ومن ثَم توّجه باللوم إلى السامري الذي كان سببًا في إضلال قومه ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦﴾ [طه: 95-96]. وقول السامري: (بَصُرتُ بِما لَم يَبصُروا بِهِ) أي: علمت ما لم يعلموا، ورأيت الملك جبريل ولم يروه، فأخذت من أثر حافر فرسه لما وجدت أن كل

(1) المصدر نفسه، (7/ 191).

ما يمر به من الأرض تدب فيه الحياة، وصنعت من الحلي وأثر المَلَك العجل المعبود فكان له خوار.

وفي قول آخر فإن قصة أثر فرس جبريل ضعيفة، ورُوِيَ المعنى المراد من قول السامري (بَصُرتُ بما لَم يَبصُروا بهِ فَقَبَضتُ قَبضَةً مِن أَثَرِ الرَّسولِ فَنَبَذتُها وَكَذلِكَ سَوَّلَت لي نَفسي)، أي: علمت ما لم يعلم قومي من علم صناعة التماثيل وعلم الحيل الذي أوجد به خوار العجل، فنبذت سنتك وهديك يا موسى وانخلعت عن ملتك بالكفر وأغريت قومي بعبادة العجل[1]. وقد رجّح هذا الرأي الزمخشري والفخر الرازي ومحمد سيد طنطاوي، وقال به أبو مسلم الأصفهاني وابن عاشور في التحرير.

فكان جزاء السامري من جنس عمله، فمن حيث أراد الشهرة والعلو بين الناس حُكِمَ عليه بالوحشة والانعزال، وأما العجل الذي تفنن في صناعته وعكف على عبادته فكان مصيره التحريق، فأصبح هباءً منثورًا تذروه الرياح، لا أثر له ولا عين. ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: 97].

وهذه القصة تبين مدى تأثر بني إسرائيل بمجتمعات الوثنية، وإلفهم معتقدات الشرك إلى درجةٍ تغلغلت في قلوبهم؛ ولذلك خُتِمَت قصة العجل بالتأكيد على نداء التوحيد. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: 98].

(1) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي (22/ 95)، والتحرير والتنوير (7/ 193)، وبنو إسرائيل في القرآن والسنة ص: 515.

وأما النصرانية فقد اختلطت بوثنيات الرومانية حتى استفحل فيها الشرك، فنسب مجمع نيقية لله عز وجل الولد وأسكت كل ما دونه من أصوات التوحيد - كما ذكرنا آنفًا -، والميل إلى الوثنية طبع في أهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله. قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: 31].

وقد اتخذ الإسلام الكثير من التدابير لوقاية المؤمنين من السقوط في شرك الوثنية، منها: الاحتفاء بشهادة التوحيد، وبيان القول الفصل في المسيح عيسى ابن مريم، وتحريم الاستغاثة بغير الله، ومنع صناعة التماثيل - سدًّا للذرائع - وكانت من قبل مباحة في شرع من قبلنا.

إلا أن المسلمين لما طال بهم الأمد وقعت طوائف منهم في المحذور، وأنت ترى الآن بعض العوام وقد التصقوا بالأضرحة واستغاثوا بالأموات، ولو كان يملك هؤلاء لأنفسهم ضرًّا أو نفعًا لما أدركهم الفناء! ومنهم من بالغ في أئمة المسلمين حتى ادعوا لهم العصمة! وهناك الكثير من الجهال ممن يطلبون البركة بالتمائم والأحجبة! وغيرها من مظاهر الشركيات التي لا بدّ للمجتمعات الإسلامية أن تستفيق لمجابهتها قبل أن تحيق بهم فاجعة كالفواجع التي نزلت بأهل الكتاب من قبلهم.

الانحراف الرابع:
بيع الدين بالدنيا

وإن أهل الكتاب اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، وبا عوا دينهم بدنياهم سعيًا وراء عرضٍ زائل، وانتهجوا في ذلك عدة أساليب، منها:

أ- تحريف الكتاب

إن أدنى من له نظر ليعلم أن الكتاب المقدس قد ناله الكثير من التحريف، فهو أشبه بكتاب تاريخي متنوع السرد والأساليب، ويتضح من اختلاف أسلوبه أنه قد أملاه أشخاص كثيرون في عصورٍ متفاوتة، وإن قومًا قد استخفّوا بربهم ونالوا من أنبيائهم لن يصعب عليهم استمراء تحريف كتابهم. قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75]. قال السعدي: «هذا قطع لأطماع المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطمعوا في إيمانهم وحالتهم لا تقتضي الطمع فيهم، فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أرادها الله، ليوهموا الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجى منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء»[1].

(1) تفسير السعدي، ص: 56.

وقد توعد الله عز وجل هؤلاء المحرفين المبدلين لدين الله عز وجل وشرائعه بالعذاب الشديد. قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: 79].

والتحايل والتملص من شرع الله وهداياته يجري في دماء يهود، فحتى في أزهى لحظات الإنعام والتمكين في أرض الله تجد منهم الجحود والانحراف. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: 58-59]. فبعد أن أنعم الله عليهم بخروجهم من التيه، وانتصروا بقيادة يوشع بن نون على الكنعانيين، أمرهم الله أن يدخلوا بيت المقدس خاضعين مخبتين طالبين أن يحط الله عنهم خطاياهم أجمعين، وذلك من أيسر ما يمكن تقديمه شكرًا لله على نعمة النصر والتمكين، فإن جزاء شكر النعمة حفظها وزيادتها، إلا أنهم عجزوا عن ذلك وغلبهم طبعهم الأفّاك، فبدلوا ما أمرهم الله من (وَقولوا حِطَّةٌ) إلى (حنطة) أي: حبة في شعيرة، ودخلوا الأرض المقدسة يزحفون على أستاههم استهزاءً وطغيانًا وكفرًا... فيا لقبح تحريفهم وسوء فعلهم!

وعلى عكس ما أوكل الله إلى السابقين من حفظ كتبهم ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 44] فبدّلوا وحرفوا، فإنه عز وجل

قد أسند لنفسه حفظ كتابه الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، وسخر بفضله لخدمته رجالاً مخلصين، عملوا على نشر هديه وعلومه في الآفاق على مر العصور، فلم تجرؤ أن تمتد إليه يدٌ بتبديل أو تحريف، وما زال عصمةً للأمة ما طلع عليها ليلٌ ونهار، فلله الحمد والمنة.

ب- إخفاء الأحكام

واليهود لم يكتفوا بتحريف كتابهم فقط، وإنما عمدوا إلى إخفاء الكثير من أحكامه مما لا يوافق أهواءهم، واعتمدوا في ذلك على حيلة نكراء؛ وهي أن ينسخوا التوراة في أوراق متفرّقة - غير مجموعة في كتاب واحد -؛ فيظهروا من هذه الأوراق ما يشاءون ويخفوا منها ما يشاءون. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۚ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91]. قال الطاهر بن عاشور: «وَالْقَرَاطِيسُ جَمْعُ قِرْطَاسٍ... أَيْ تَجْعَلُونَ الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى أَوْرَاقًا مُتَفَرِّقَةً قَصْدًا لِإِظْهَارِ بَعْضِهَا وَإِخْفَاءِ بَعْضٍ آخَرَ.

وَقَوْلُهُ: تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً صِفَةٌ لِقَرَاطِيسَ، أَيْ تُبْدُونَ بَعْضَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا مِنْهَا، فَفُهِمَ أَنَّ الْمَعْنَى تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ لِغَرَضِ إِبْدَاءِ بَعْضٍ وَإِخْفَاءِ بَعْضٍ.

وَهَذِهِ الصِّفَةُ فِي مَحَلِّ الذَّمِّ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ كُتُبَهُ لِلْهُدَى، وَالْهُدَى بِهَا مُتَوَقِّفٌ عَلَى إِظْهَارِهَا وَإِعْلَانِهَا، فَمَنْ فَرَّقَهَا لِيُظْهِرَ بَعْضًا وَيُخْفِيَ بَعْضًا

فَقَدْ خَالَفَ مُرَادَ اللَّهِ مِنْهَا. فَأَمَّا لَوْ جَعَلُوهُ قَرَاطِيسَ لِغَيْرِ هَذَا الْمَقْصِدِ لَمَا كَانَ فِعْلُهُمْ مَذْمُومًا، كَمَا كَتَبَ الْمُسْلِمُونَ الْقُرْآنَ فِي أَجْزَاءٍ مُنْفَصِلَةٍ لِقَصْدِ الِاسْتِعَانَةِ عَلَى الْقِرَاءَةِ، وَكَذَلِكَ كِتَابَةُ الْأَلْوَاحِ فِي الْكَتَاتِيبِ لِمَصْلَحَةٍ»[1].

هذا، وقد دفعهم الحقد والحسد على محمد ﷺ أن يجحدوا نبوته وإخفاء ما ورد في كتبهم من البشارة به أو ما توافق من الأحكام لديهم مع شريعته، ومثال ذلك: ما أنكروه من رجم الزاني المحصن. روى عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أَنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ أُتِيَ بيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةٍ قدْ زَنَيَا، فَانْطَلَقَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ حَتَّى جَاءَ يَهُودَ، فَقالَ: ما تَجِدُونَ في التَّوْرَاةِ علَى مَن زَنَى؟ قالوا: نُسَوِّدُ وُجُوهَهُمَا، وَنُحَمِّلُهُمَا، وَنُخَالِفُ بيْنَ وُجُوهِهِمَا، وَيُطَافُ بهِمَا، قالَ: فَأْتُوا بالتَّوْرَاةِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَجَاؤُوا بهَا فَقَرَؤُوهَا حتَّى إذَا مَرُّوا بآيَةِ الرَّجْمِ وَضَعَ الفَتَى الذي يَقْرَأُ يَدَهُ علَى آيَةِ الرَّجْمِ، وَقَرَأَ ما بيْنَ يَدَيْهَا، وَما وَرَاءَهَا، فَقالَ له عبدُ اللهِ بنُ سَلَامٍ: وَهو مع رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ، فَرَفَعَهَا فَإِذَا تَحْتَهَا آيَةُ الرَّجْمِ، فأمَرَ بهِما رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ، فَرُجِمَا. قالَ عبدُ اللهِ بنُ عُمَرَ: كُنْتُ فِيمَن رَجَمَهُمَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَقِيهَا مِنَ الحِجَارَةِ بنَفْسِهِ[2].

إخفاء الأحكام ضرب من التعدي على شرع الله عز وجل، وجناية كبرى لا تصدر إلا عن اللئام وأصحاب القلوب السوداء، وقد استمعنا مؤخرًا إلى بعض الأصوات المنكرَة التي تنادي بحذف آيات من سورة

(1) التحرير والتنوير، (3/ 509).
(2) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

المائدة لأنها قد تخدش مشاعر النصارى العرب! أو الاستغناء عن سورة الأنفال بأكملها لأنها تنافي السلام العالمي بحديثها عن أحكام الجهاد!!! ولا أعلم كيف تسنى لهؤلاء الأوغاد أن ينطقوا بمثل هذه المقولة أو يطالبوا بتلك المهاترات سوى أن المسلمين قد بلغوا من الذل والهوان مبلغًا عظيمًا... فنعوذ بالله من الخذلان... وإن هذه الأمة لن يصلح آخرها كما صلح أولها إلا برجوعها للقرآن واعتزازها بشريعته الغراء ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: 10].

ج- التحايل على الشرع

يعد التماس الثغرات في القوانين الوضعية مهارة يتفاخر بها أرباب القانون، وأما التماس الثغرات في القوانين الإلهية فمفسدة تنم عن لؤم صاحبها وطعنه في الشارع جل وعلا، وإن اليهود لم يتركوا بابًا للتحايل على شريعة الله إلا ولجوه؛ إذ دفعهم سوء ظنهم بالله إلى نسيان أنه سبحانه المحيط بكل شيء، العليم بما يسرون وما يعلنون.

وفي قصة أصحاب السبت ذكر لطبع التحايل فيهم، وعبرة لكل من تسول له نفسه التعدي على حدود الله. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 65-66].

وذلك أن الله سبحانه وتعالى كان قد كتب على بني إسرائيل حرمة العمل يوم السبت كي ما يتفرغوا للعبادة في هذا اليوم بعيدًا عن مشاغل

الدنيا، إلا أن سكان قرية (أَيْلَة)[1] - وكانوا يشتغلون بالصيد - لم يستطيعوا تحاشي الفتنة لما رأوا أن الأسماك تأتي بغزارة يوم التحريم، حتى لتكاد أن تطفو فوق سطح البحر، ثم إذا كانت بقية أيام الأسبوع شحّت وعزّ وجودها، فما كان منهم إلا أن التمسوا الثغرات للتحايل على شرع الله، فحفروا حياضًا بجانب البحر ومدوا منها الجداول الصغيرة؛ حتى إذا دخلت إليها الأسماك يوم السبت لم تستطع الخروج منها لقلة منسوب المياه، وقيل: كانوا يضعون الشِباك يوم الجمعة فتمتلئ يوم السبت بالأسماك، فإذا كان يوم الأحد ذهبوا فأخذوها بيسر وسهولة. قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 163].

وكان عليهم أن يعلموا أن هذا البلاء قد وقع عليهم اختبارًا لهم وتمحيصًا لإيمانهم؛ أيمتثلون لأمر الله طاعةً وبرًّا؟ أم يمتثلون داعي العصيان ويغرهم وجود المشتهى الممنوع؟ فكان جزاء تحايلهم واجترائهم على أوامر الله أن مسخهم الله قردة، ولم ينجُ إلا الذين دأبوا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحذروا القوم مغبة أفعالهم. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: 165-166].

(1) العقبة حاليا، قرب ساحل البحر الأحمر.

فالتحايل على الشرع دأب الذين في قلوبهم مرض، الذين لم يرضوا بالله ورسله، وزينت لهم أهواؤهم سوء فعالهم، وعلى المسلمين أن يحذروا هذا المسلك البغيض، وأن يأخذوا على يد كل من يحاول أن يستخف بشرع الله وآياته.

د- التبعيض

كنت قد تحدثت عن هذه النقطة من قبل في فَصلَيّ (أمة وسطا - وأبهذا أمرتم؟)، وأنه ينبغي على المسلم أن يأخذ الصورة الكاملة للشريعة ويبتعد عن منهج التبعيض - الذي استخدمه أهل الكتاب ومن على شاكلتهم - لئلا يقع في مهلكة الإفراط أو شَرَك التفريط فيحيد عن منهج الوسط.

وكل ما هنالك أنني سأضيف مزيد توضيح لتفسير قوله تعالى في معرض خطابه لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: 84-85].

يتحدث الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات إلى اليهود من أهل العهد المدني، فيعيب عليهم منهج التبعيض والانتقاء في شرع الله، وكان

يهود المدينة وقتئذ ثلاث قبائل: (بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة). وأما العرب فقد انقسموا إلى قبيلتين كبيرتين، هما: (الأوس والخزرج)، ودارت بين تلكما القبيلتين حروب طاحنة قبل دخولهم في الإسلام، هلك فيها خَلق كثير... على أن اليهود من يقفوا من هذه الحروب موقف المتفرج؛ فقد تحالفت كل قبيلة من يهود مع فريق من العرب - بما يناسب مصالحها -، فكانت بنو النضير حليفة للخزرج، وكانت بنو قريظة حليفة للأوس، فإذا دارت رحى القتال وقف كل فريق مع حليفه وأعمل اليهودي سيفه في إخوانه من الفريق الآخر، وعمد إلى إخراجهم من بيوتهم ونهب ما فيها من الأمتعة والأموال! وهذا بالطبع مما تحرّمه توراتهم، فلا يقتل أخ أخاه ولا يستحل ماله، غير أنهم بعد كل ما اقترفوه من هذه الآثام كانوا أشد الناس حرصًا على فداء أسارى الفريق المغلوب بعد انتهاء الحرب تورعًا! يزعمون في ذلك توقيرهم لأحكام التوراة وحرصهم على العمل باستفكاك الأسرى! فبئس القوم يرتكبون الكبيرة ثم يحرصون على الفكاكِ من الصغيرة! فكانت العرب بعد تعيِّرهم بذلك، فما لهم كيف يحكمون؟!!

روى ابن كثير عَنِ السُّدِّيِّ: «كَانَتْ قُرَيْظَةُ حُلَفَاءَ الْأَوْسِ، وَكَانَتِ النَّضِيرُ حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ، فَكَانُوا يَقْتَتِلُونَ فِي حَرْبِ سُمَيْرٍ، فَيُقَاتِلُ بَنُو قُرَيْظَةَ مَعَ حُلَفَائِهَا النَضِيرَ وَحُلَفَاءَهُمْ، وكانت النضير تقاتل قريظة وَحُلَفَاءَهَا، وَيَغْلِبُونَهُمْ، فَيُخَرِّبُونَ دِيَارَهُمْ، وَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْهَا، فَإِذَا أُسِرَ رَجُلٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، جَمَعُوا لَهُ حَتَّى يَفْدُوهُ. فَتُعَيِّرُهُمُ الْعَرَبُ بِذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: كَيْفَ تُقَاتِلُونَهُمْ وَتَفْدُونَهُمْ؟ قَالُوا: إِنَّا أُمِرْنَا أَنْ نَفْدِيَهُمْ،

وَحُرِّمَ عَلَيْنَا قِتَالُهُمْ، قَالُوا: فَلِمَ تُقَاتِلُونَهُمْ؟ قَالُوا: إِنَّا نَسْتَحْيِي أَنْ تُسْتَذَلَّ حُلَفَاؤُنَا. فَذَلِكَ حِينَ عيَّرهم اللَّهُ، فَقَالَ: (ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ).

وعن أَبِي الْعَالِيَةِ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ مَرَّ عَلَى رَأْسِ الْجَالُوتِ[1] بِالْكُوفَةِ، وَهُوَ يُفَادِي مِنَ النِّسَاءِ مَنْ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهَا الْعَرَبُ، وَلَا يُفَادِي مَنْ وَقَعَ عَلَيْهَا الْعَرَبُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ: أَمَا إِنَّهُ مَكْتُوبٌ عِنْدَكَ فِي كِتَابِكَ أَنْ تَفَادِيَهُنَّ كُلَّهُنَّ»[2].

فهذا المسلك الخبيث في أخذ ما يوافق المصالح والأهواء من شرع الله، وترك ما لا يوافق الهوى مذموم عند الله عز وجل وعند عباده المؤمنين، وقد استحقت يهود الغضب واللعنة بما اقترفت يداها، فوجب على المسلمين الحذر مما وقع فيه من قبلهم، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: 85-86].

(1) رأس الجالوت: اسم أُطلِقَ على رئيس الطائفة اليهودية قديمًا.

(2) اليسير في اختصار تفسير ابن كثير، (1/ 122)، اختصار وتحقيق: صلاح عرفات، ومحمد الشنقيطي، وخالد عبد الحميد، دار تفسير للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1443. هـ - 2021.م. (عدد الأجزاء: 2).

هـ - أكل الأموال بالباطل

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34].

يخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن (الأحبار) وهم علماء اليهود، (والرهبان) وهم المجتهدين من عُبّاد النصارى قد استحلوا لأنفسهم أكل أموال الناس بطُرُقٍ باطلة، استغلوا فيها اسم الدين لتحصيل الثروات وبسط النفوذ.

ولا يخفى على أحد المعاناة التي عاشها الأوروبيون تحت وطأة بطش رجال الكنيسة في عصور الظلام؛ فإنه كان بإمكان الكنيسة أن ترمي أيًا من مخالفيها بتهمة «الهرطقة» للاستيلاء على كامل أمواله والزج به في السجن.

وتفتق ذهن الرهبان إلى حيلة للاستيلاء على أموال الأغنياء عبر صكوك الغفران، وهي صكوك تبيعها الكنيسة لأصحاب الذنوب وأرباب الخطايا في مقابل أن تعطيهم وثيقة رسمية بالمغفرة ودخول الجنة! وهو السبب الرئيس الذي دفع مارتن لوثر في القرن السادس عشر الميلادي إلى الثورة على الكنيسة الكاثوليكية وإنشاء مذهبه البروتستانتي الجديد.

وأما الفقراء فقد أكلت الكنيسة أموالهم من خلال التبرعات التي حثتهم عليها لأجل التقرب إلى الله! ناهيك عن استحلال علماء أهل

الكتاب (يهودًا ونصارى) أكل الرشوة من أجل تخفيف الأحكام أو تغييرها بناء على طلبات الملوك والتقرب إلى الرؤساء، وقبول الهدايا العظيمة والأموال الطائلة في سبيل ذلك، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 62-63]. قيل: السحت هو الرِّشا. وقيل: هو المال الحرام بكل أنواعه.

والنبي صلى الله عليه وسلم - وهو أمير الدعاة وإمام العلماء - كان واضحًا في طريقته ومنهجه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 90]. قال السعدي - رحمه الله -: «﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: لا أطلب منكم مغرما ومالا جزاء عن إبلاغي إياكم ودعوتي لكم فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله»[1].

وقال الزمخشري - رحمه الله -: «ما من رسول إلا واجه قومه بهذا القول، لأنّ شأنهم النصيحة، والنصيحة لا يمحصها ولا يمحضها إلا حسم المطامع، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع»[2].

هذا، وقد حارب رسول الله ﷺ كل ما من شأنه أن يحول أمر الدعوة إلى ربح وإتجار، وحذّر مغبة هذا الأمر وخوّف. روى البخاري في صحيحه، عن أبي حميد الساعديّ - رضي الله عنه - قال: (اسْتَعْمَلَ

(1) تفسير السعدي، ص: 263.
(2) تفسير الكشاف للزمخشري، (2/ 402).

النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَجُلًا مِن بَنِي أَسْدٍ يُقَالُ له ابنُ الأُتَبِيَّةِ علَى صَدَقَةٍ، فَلَمَّا قَدِمَ قالَ: هذا لَكُمْ وهذا أُهْدِيَ لِي، فَقَامَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علَى المِنْبَرِ - قالَ سُفْيَانُ أيضًا فَصَعِدَ المِنْبَرَ - فَحَمِدَ اللَّهَ وأَثْنَى عليه ثُمَّ قالَ: ما بَالُ العَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يقولُ: هذا لكَ وهذا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ في بَيْتِ أبِيهِ وأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أيُهْدَى له أمْ لا، والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لا يَأْتِي بشيءٍ إلَّا جَاءَ به يَومَ القِيَامَةِ يَحْمِلُهُ علَى رَقَبَتِهِ، إنْ كانَ بَعِيرًا له رُغَاءٌ، أوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أوْ شَاةً تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إبْطَيْهِ ألا هلْ بَلَّغْتُ ثَلَاثًا)[1].

وأنشد عبد الله بن المبارك فقال:

وهل أفسدَ الدِّينَ إلا الملوكُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها

وقال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبّادنا كان فيه شبهٌ من النصارى»[2].

فالخير كله في هَدي محمد ﷺ، وعلى دعاة المسلمين وعلمائهم أن يقتفوا أثره، فإنه متى غلبت عليهم أثرة أهل الكتاب، وتحكمت في قلوبهم محبة الأموال والرياسة والسلطان، هلكت الأمة من بعدهم! فليحذر كل من يقف على ثغر من ثغور الدعوة... وأولهم كاتبة هذه الكلمات... ولا حول ولا قوة إلا بالله... (رَبَّنَا لا تُزِغ قُلوبَنا بَعدَ إِذ هَدَيتَنا وَهَب لَنا مِن لَدُنكَ رَحمَةً إِنَّكَ أَنتَ الوَهّابُ).

(1) البخاري: (7197).
(2) اليسير في اختصار تفسير ابن كثير، (1/ 816).

الانحراف الخامس:
معاداة أولياء الله
وعباده الصالحين

برع اليهود في معاداة الصالحين والتفنن في تكذيب المرسلين وإيذائهم على مر التاريخ، ووصلهم بهم الحقد إلى محاولات قتلهم، بل ونجاحهم في ذلك بالفعل، فلكم كذبوا أرمياء وضربوه وحبسوه وعصوا أمرهم حتى خربت أورشليم! وقتلوا أشعياء وزكريا ويحيى – عليهم السلام –، وتفاخروا في كل زمان ومكان بقتل المسيح عيسى ابن مريم – عليه السلام –، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157]، وحاولوا مراتٍ عدة قتل نبي الله محمد ﷺ، وما زالت عداوتهم له ولأمته ﷺ ظاهرة ولا تخفى على أحد حتى يومنا هذا؛ فهم قتلة الأنبياء وأعداء المصلحين، مطبوعٌ على قلوبهم محبة الفساد وكراهية كل طهر وحق مبين، فاستحقوا غضب الله وسخطه، ولُعنوا وطُردوا من رحمته، قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: 61]. قال ابن كثير: «يقول تعالى: هَذَا الَّذِي جَازَيْنَاهُمْ مِنَ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، وَإِحْلَالِ الْغَضَبِ بِهِمْ

بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَإِهَانَتِهِمْ حَمَلَةَ الشَّرْعِ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَأَتْبَاعُهُمْ، فَانْتَقَصُوهُمْ إِلَى أَنْ أَفْضَى بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ قَتَلُوهُمْ، فَلَا كِبْرَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ). يَعْنِي: رَدَّ الْحَقِّ وَانْتِقَاصَ النَّاسِ، وَالِازْدِرَاءَ بِهِمْ وَالتَّعَاظُمَ عَلَيْهِمْ. وَلِهَذَا لَمَّا ارْتَكَبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِ أَنْبِيَائِهِمْ، أَحَلَّ اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ الَّذِي لَا يُرَدُّ، وَكَسَاهُمْ ذُلًّا فِي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ جَزَاءً وِفَاقًا»[1].

فإن عجزوا عن القتل والتعذيب فبتشويه سمعة عباد الله الصالحين، وإنك لو فتحت كتابهم المُحرَّف لوجدتَ فيه من الافتراء على الأنبياء ما يندى له الجبين! ففي التكوين يتهمون نبي الله لوط - عليه السلام - الطاهر المُطهَّر بمقالة شنيعة، إذ يرموه بالزنا بابنتَيه. قالوا: «وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل، وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة: «أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلا». فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: «إني قد اضطجعت البارحة مع أبي. نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلي اضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلا». فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة

(1) المصدر نفسه، (1/ 105).

أيضا، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما. فولدت البكر ابنا ودعت اسمه «موآب»، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم. والصغيرة أيضا ولدت ابنا ودعت اسمه «بن عمي»، وهو أبو بني عمون إلى اليوم»[1]. فنعوذ بالله من قولهم الشنيع، ووالله ما حملني على نقل مثل هذه النصوص البذيئة إلا ليعلم المسلم عين اليقين مقدار ما أنعم عليه وعلى أمته بالقرآن الكريم... فشتان ما بين كلام الله وبين كلامهم المحرَّف الأفّاك.

وأما نبي الله هارون – عليه السلام – فقد زعموا أنه صانع العجل وأنه من فتنهم بعبادته. جاء في سِفر الخروج: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: «قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه». فقال لهم هارون: «انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها». فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل، وصنعه عجلا مسبوكا. فقالوا: «هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر». فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه، ونادى هارون وقال: «غدا عيد للرب»[2]. ولقد نزل القرآن الكريم مبرئًا لساحة هارون – عليه السلام –، وناسبًا هذا الكفر الصريح إلى صاحبه «السامري» كما وضحنا في قصة عبادتهم للعجل من قبل.

(1) التكوين: (19/ 30 – 38).
(2) الخروج: (32/ 1 – 5).

وأما نبي الله سليمان – عليه السلام – فقد اتهموه بالسحر ورموه بالكفر، فكان مما وُصِفَ به في سِفر الملوك الأول قوله: «ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورث إلهة الصيدونيين، وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموآبيين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن. فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين، وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى، فلم يحفظ ما أوصى به الرب»[1].

وقد نفى الله عز وجل عن نبيه سليمان هذه الإفتراءات فقال في كتابه الكريم: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البقرة: 102]. قال محمد سيد طنطاوي: «إن هؤلاء اليهود نبذوا كتاب الله، واتبعوا الذي كانت تتلوه وتقصه الشياطين على عهد ملك سليمان، وفي زمانه، من الأكاذيب والكفر، ومن ذلك زعمهم أن ملكه قام على أساس السحر، وأنه ارتد في أواخر حياته، وعبد الأصنام إرضاء لنسائه الوثنيات إلى غير ذلك من الأكاذيب التي ألصقوها به –عليه السلام – وهو برىء منها... وكانوا عند ما يذكر النبي صلّى الله عليه وسلّم سليمان بين الأنبياء يقولون:

(1) الملوك الأول: (11/ 4– 10).

انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، وإنما كان ساحرا يركب الريح.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ معناه: وما كفر سليمان ولكن الشياطين هم الذين كفروا إذ تعلموا السحر وعلموه لغيرهم بقصد إضلالهم، وصرفهم عن عبادة الله – تعالى– إلى عبادة غيره من المخلوقات.

ففي الجملة الكريمة تنزيه لسليمان – عليه السلام – عن الردة والشرك وتبرئة له من عمل السحر الذي كان يتعاطاه أولئك الشياطين وينسبونه إليه زورا وبهتانا، ودلالة على أن ذلك السحر الذي نسبوه إليه وباشرته الشياطين نوع من الكفر»[1].

وكذلك فعلوا مع عبد الله بن سلام – رضي الله عنه –؛ إذ نسبت يهود إليه كل خلق ذميم حين علمت بإسلامه، وكان عبد الله من ساداتهم بالمدينة المنورة، عليم بطبائعهم السيئة وأخلاقهم الذميمة، فاتخذ احتياطه للحفاظ على سمعته لدى رسول الله ﷺ، فقال له: «يا رَسولَ اللَّهِ إنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي، قَبْلَ أنْ يَعْلَمُوا بإسْلَامِي، فَجَاءَتِ اليَهُودُ فَقَالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أيُّ رَجُلٍ عبدُ اللَّهِ بنُ سَلَامٍ فِيكُمْ؟ قالوا: خَيْرُنَا وابنُ خَيْرِنَا، وأَفْضَلُنَا وابنُ أَفْضَلِنَا، فَقَالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أرَأَيْتُمْ إنْ أسْلَمَ عبدُ اللَّهِ بنُ سَلَامٍ قالوا: أعَاذَهُ اللَّهُ مِن ذلكَ، فأعَادَ عليهم، فقالوا: مِثْلَ ذلكَ، فَخَرَجَ إليهِم عبدُ

(1) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (1/ 226).

اللَّهَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللَّهِ، قالوا: شَرُّنَا وابنُ شَرِّنَا، وتَنَقَّصُوهُ، قَالَ: هذا كُنْتُ أَخَافُ يا رَسولَ اللَّهِ»[1].

وهكذا، فإنهم يطلقون ألسنتهم دائما وأبدا في أذية المؤمنين الصادقين ونهش أعراضهم واتهام دياناتهم و مروءاتهم؛ ولذلك قال ربنا سبحانه وتعالى تهميشًا لقدرهم وإفشالًا لمكائدهم وتثبيتًا لقلوب عباده المسلمين: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: 111]. قال السعدي – رحمه الله –: «من لطف الله بعباده المؤمنين أنه رد كيدهم في نحورهم، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أديانهم ولا أبدانهم، وإنما غاية ما يصلون إليه من الأذى أذية الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل معادي، فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأدبار فرارا ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات»[2].

وقال ابن الجوزي – رحمه الله –: «ومَقْصُودُ الآيَةِ: إعْلامُ المُسْلِمِينَ بِأَنَّهُ لَنْ يَنالَهم منهم إلّا الأذى باللِّسانِ من دُعائِهِمْ إيّاهم إلى الضَّلالِ، وإسْماعِهِمُ الكُفْرَ، ثُمَّ وعَدَهُمُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ في قَوْلِهِ: (وَإِنْ يُقاتِلُوكم يُوَلُّوكُمُ الأدْبارَ)»[3].

وما زالت ألسنتهم تقطر أذىً وزورًا، فكانت اليهود إذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قالوا: «السامُ عليك» بدلًا من «السلام

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: (3938).
(2) تفسير السعدي، ص: 143.
(3) زاد المسير، (1/ 315).

عليك»، والسام: الموت، يقصدون بها الدعاء على النبي الكريم ﷺ بالموت! وكان رسول الله ﷺ عارفًا بخبث نفوسهم وسيئ أخلاقهم، فلم يكن يزيد ﷺ في الرد عليهم سوى بقوله: «وعليكم».

ووصل السواد بقلوبهم إلى أنهم لم يكتفوا بمعاداة الصالحين من البشر، وإنما وصلت عداوتهم إلى ملائكة الله الكرام الأبرار، فجهروا بعداوتهم لجبريل - عليه السلام - حقدًا وحسدًا، وذكروا لذلك أسباب متعددة ومتضاربة، فتارة يقولون أنه ينزل بالعذاب والتشديد وهو الذي أنذرهم بخراب أورشليم على يد نبوخذ نصر! وتارةً يقولون أنه أُمِرَ بجعل النبوة فيهم فعصى الأمر وجعلها لمحمد ﷺ ولذلك فهو عدوهم! وتارة يقولون لو أن ميكائيل هو الذي نزل على محمد ﷺ بدلًا من جبريل لاتبعوا دينه! وغيرها الكثير من الأوهام التي تنم عن فساد فطرتهم وكراهيتهم للخير وتمكن الحقد من قلوبهم. وهل الملائكة إلا خَلق مكرّمون؟ مجبولون على طاعة الله والمسارعة لأمره ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 26-28].

ولقد أوضح سبحانه وتعالى أن عداوتهم لجبريل إنما هي عداوة لله وما أنزل على محمد ﷺ من القرآن والدين الحق، وعداوة لجميع ملائكته ورسله؛ إذ لا فرق بينهم. قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ

﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ [البقرة: 97-98]. قال ابن عاشور - رحمه الله -: «ومِن عَجيبِ تَهافُتِ اعْتِقادِهِمْ أنَّهم يُثْبِتُونَ أنَّهُ مَلَكٌ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ ويُبْغِضُونَهُ، وهَذا مِن أحَطِّ دَرَكاتِ الِانْحِطاطِ في العَقْلِ والعَقِيدَةِ، ولا شَكَّ أنَّ اضْطِرابَ العَقِيدَةِ مِن أكْبَرِ مَظاهِرِ انْحِطاطِ الأُمَّةِ لِأنَّهُ يُنْبِئُ عَنْ تَظافُرِ آرائِهِمْ عَلى الخَطَأِ والأوْهامِ»[1].

فكل من كان في قلبه بغض لعباد الله الصالحين المصلحين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان فيه خصلة من يهود، وعليه، فليراجع قلبه. هذا فضلًا عمن لا يتورع عن إيذائهم وإلحاق الضرر بهم... والحقيقة أن الذي دفع أهل الكتاب ومن تشبّه بهم إلى غمط الناس ومحاربة الحق مرضٌ قلبي خطير إذا تمكن من النفوس أكلها. سنتحدث عنه في النقطة التالية، ألا وهو «الحسد».

(1) التحرير والتنوير، (1/ 584).

الانحراف السادس:
الحسد

إن الغرور لا بدّ دافعٌ صاحبه إلى الحسد، ومن رأى في نفسه الاستحقاقية متوقعٌ منه بلا ريب أن يغمط الناس حقوقهم؛ لأنه يرى نفسه أولَى بالنّعم والشرف منهم؛ وما كذّبت أهل الكتاب محمدًا ﷺ – مع علمهم بالبشارة به في كتبهم – إلا حسدًا وحقدًا على خروج النبوة من بني إسرائيل إلى معاشر العرب. قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: 109]. أي: «تمنى كثير من اليهود والنصارى أن يردُّوكم [أيها المسلمون] من بعد إيمانكم كفارًا كما كنتم تعبدون الأوثان، بسبب الحسد الذي في أنفسهم، يتمنون ذلك بعدما تبين لهم أن الذي جاء به النبي حق من الله، فاعفوا – أيها المؤمنون – عن أفعالهم، وتجاوزوا عن جهلهم وسوء ما في نفوسهم، حتى يأتي حكم الله فيهم – وقد أتى أمر الله هذا وحكمه، فكان الكافر يُخيَّرُ بين الإسلام أو دفع الجزية أو القتال – إن الله على كل شيء قدير، فلا يعجزونه»[1].

(1) المختصر في التفسير، ص: 17.

«وقوله تعالى: (مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت بعد أن ظهر لهم صدق النبي صلّى الله عليه وسلّم، وبعد أن تبين لهم أن الصفات التي وردت في التوراة بشأن المبشر به لا تنطبق إلا عليه، وإذًا فكفرهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، وذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة وبتبشيرها بالنبي صلّى الله عليه وسلّم»[1].

قال ابن الجوزي – رحمه الله –: «أما الحَسَدُ، فهو تَمَنِّي زَوال النِّعْمَةِ عَنِ المَحْسُودِ، وإنْ لَمْ يَصِرْ لِلْحاسِدِ مِثْلُها، وتُفارِقُهُ الغِبْطَةُ، فَإنَّها تَمَنِّي مِثْلِها من غَيْرِ حُبِّ زَوالِها عَنِ المَغْبُوطِ. وحَدَّ بَعْضُهُمُ الحَسَدَ فَقالَ: هو أذًى يَلْحَقُ بِسَبَبِ العِلْمِ بِحُسْنِ حالِ الأخْيارِ... وَقالَ بَعْضُ الحُكَماءِ: كُلُّ أحَدٍ يُمْكِنُ أنْ تُرْضِيَهُ إلّا الحاسِدُ، فَإنَّهُ لا يُرْضِيهِ إلّا زَوالُ نِعْمَتِكَ. وقالَ الأصْمَعِيُّ: سَمِعْتُ أعْرابِيًّا يَقُولُ: ما رَأيْتُ ظالِمًا أشْبَهَ بِمَظْلُومٍ مِنَ الحاسِدِ، حُزْنٌ لازِمٌ، ونَفَسٌ دائِمٌ، وعَقْلٌ هائِمٌ، وحَسْرَةٌ لا تَنْقَضِي»[2].

وإن أول معصية عُصِيَ الله عز وجل بها هي (الحسد)؛ إذ حسد إبليس آدم على ما أنعم الله تعالى به عليه من التكريم والتشريف؛ ثم تبع بنو إسرائيل نهج الشيطان فحسدوا أهل الحق على ما آتاهم الله من فضله، فمعاداتهم واضحة في كل زمان لأولياء الله وعباده الصالحين، وكأنما يقدحون في حكمة الله وتقسيمه لفضله ونعمائه بين خلقه، وإنه لما أُرسِلَ طالوت من قبل بالملك عليهم عارضوا اختيار الله، وبادروا

(1) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، (1/ 244).
(2) زاد المسير، (1/ 101).

إلى المجادلة والمراء - كعادتهم دائمًا -، فنظرتهم الاستحقاقية وغرورهم زينت للأغنياء منهم أنهم أحق بالاختيار للملك منه. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ وبإزاء جهلهم بيّن لهم نبيهم أن هذا الاصطفاء إنما باختيار الله تبارك وتعالى، الذي فضّل لوطًا بالعلم والقوة مما يؤهله للقيام بمقتضيات الملك، وأن الأموال والأحساب ليستا معيارًا للتفضيل كما يتوهمون. قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247].

قال القرطبي - رحمه الله -: «وَهَذَا النَّوْعُ الَّذِي ذَمَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) [النساء: 54]، وَإِنَّمَا كَانَ مَذْمُومًا لِأَنَّ فِيهِ تَسْفِيهُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ. وَأَمَّا الْمَحْمُودُ فَهُوَ مَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْحَدِيثِ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ). وَهَذَا الْحَسَدُ مَعْنَاهُ: الْغِبْطَةُ. وَكَذَلِكَ تَرْجَمَ عَلَيْهِ الْبُخَارِيُّ «بَابَ الِاغْتِبَاطِ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ». وَحَقِيقَتُهَا: أَنْ تَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَكَ مَا لِأَخِيكَ الْمُسْلِمِ مِنَ الْخَيْرِ وَالنِّعْمَةِ وَلَا يَزُولُ عَنْهُ خَيْرُهُ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى هَذَا مُنَافَسَةً، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26]»[1].

(1) تفسير القرطبي، (2/ 71).

ولذلك نهى الإسلام عن الحسد وحرّم كل ما من شأنه أن يجرح صفاء القلوب ويثير العداوة بين المسلمين. يقول النبي ﷺ: (لا تَبَاغَضُوا، ولا تَحَاسَدُوا، ولا تَدابَرُوا، وكُونُوا عِبادَ اللَّهِ إِخْوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ)[1].

فالحسد آفة تنخر أواصر المحبة، وتزرع بذور البغضاء والأحقاد بين الأفراد؛ مما يكدر صفو استقرار المجتمعات ويعمل على شق صفها؛ ولهذا وجب على المسلم أن يتفقد قلبه بشكل دوري لحمايته من هذا المرض اللعين الذي أصاب أهل الكتاب من قبله فأهلكهم؛ فإنه لن يكمل إيمان عبدٍ حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[2]... نسأل الله أن يرزقنا نفوسًا مطمئنة وقلوبًا طاهرة.

(1) متفق عليه.

(2) يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ) [متفق عليه].

الانحراف السابع:
التكالب على الدنيا
والجبن عن الجهاد

متى تسلط حب الدنيا على قلب إنسان أقعده عن حوز المكارم وطيّب الأخلاق، وإن اليهود لما تكالبوا على الدنيا وكرهوا لقاء الله عز وجل أدركهم داء الجبن وطُبِعَ على قلوبهم الرعب. يصفهم الله عز وجل في كتابه فيقول: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 96]. أي: ولتجدن اليهود - يا محمد - أحرص الناس على الحياة، ولو كانت حياة مذلة وعار، وأشدهم كراهية للموت وهربًا منه، بل إن حبهم للدنيا أشد حتى من المشركين الذين يعتبرون الدنيا جنتهم الكبرى ونعيمهم الوحيد، فلا يؤمنون ببعث ولا يتجهزون لحساب، فيود اليهودي لو أنه يعمر في الدنيا لألف سنة؛ وما ذلك إلا لعلمه بما ينتظره في الآخرة من عذاب الله وغضبه وعقابه.

قال الزمخشري - رحمه الله -: «وفيه توبيخ عظيم: لأنّ الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو

مقرّ بالجزاء كان حقيقًا بأعظم التوبيخ. فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟ قلت: لأنهم علموا- لعلمهم بحالهم - أنهم صائرون إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون ذلك»[1].

وقال ابن عاشور - رحمه الله -: «(ولَتَجِدَنَّهم أحْرَصَ النّاسِ عَلى حَياةٍ ومِنَ الَّذِينَ أشْرَكُوا يَوَدُّ أحَدُهم لَوْ يُعَمَّرُ ألْفَ سَنَةٍ وما هو بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذابِ أنْ يُعَمَّرَ واللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ) مَعْطُوفٌ عَلى قَوْلِهِ (ولَنْ يَتَمَنَّوْهُ أبَدًا) لِلْإشارَةِ إلى أنَّ عَدَمَ تَمَنِّيهِمُ المَوْتَ لَيْسَ عَلى الوَجْهِ المُعْتادِ عِنْدَ البَشَرِ مِن كَراهَةِ المَوْتِ ما دامَ المَرْءُ بِعافِيَةٍ؛ بَلْ هم تَجاوَزُوا ذَلِكَ إلى كَوْنِهِمْ أحْرَصَ مِن سائِرِ البَشَرِ عَلى الحَياةِ، حَتّى المُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ بَعْثًا ولا نُشُورًا ولا نَعِيمًا فَنَعِيمُهم عِنْدَهم هو نَعِيمُ الدُّنْيا، وإلى أنْ تَمَنَّوْا أنْ يُعَمَّرُوا أقْصى أمَدِ التَّعْمِيرِ مَعَ ما يَعْتَرِي صاحِبَ هَذا العُمُرِ مِن سُوءِ الحالَةِ ورَذالَةِ العَيْشِ»[2].

وفي قوله تعالى: (عَلى حَياةٍ) نكَّر سبحانه الحياة التي يحرصون عليها زيادةً في تحقيرهم، فكأنه سبحانه يقول: إنهم شديدوا الحرص على الحياة، ولو كانت حياة بؤس وشقاء؛ وللإشعار بأن ما يهمهم هو مطلق حياة كيفما كانت، بصرف النظر عن العزة والكرامة[3].

وتهالكهم على الدنيا هو الذي وسمهم بالجبن وأقعدهم عن مواطن الشرف والجهاد، فعصوا أمر موسى - عليه السلام - لما أمرهم بدخول

(1) تفسير الكشاف، (1/ 168).
(2) التحرير والتنوير، (1/ 580).
(3) بنو إسرائيل في القرآن والسنة، ص: 479.

الأرض المقدسة في إساءة أدب وقبح شديد، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]، فكان جزاؤهم أن عاقبهم الله بالتيه: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: 26].

وإنك لا تكاد تجدهم في جهاد إلا ولوا الأدبار، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 246]. وقال تعالى أيضًا: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: 111]. فهم جبناء، غير قادرين على المواجهات، وإنما يتحصنون خلف الأبواب والدروع والدبابات، وقد رأى العالم بأسره فضيحتهم في معركة الطوفان، وما أبلاه رجال المقاومة الشجعان رغم فرق العدة والعتاد. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحشر: 13-14].

فهم دائمًا وأبدًا متحصنون خلف جُدُر مادية من الأسلحة الفتاكة، وجُدُر معنوية من الدعاية النفسية الكذابة، فيزعمون أنهم الجيش الذي لا يُقهَر وأنهم أنهم أعلى الناس، وفي الحقيقة هم الأذلاء، فلا يكادون يحققون نصرًا إلا بأيدي غيرهم من الأمريكان والداعمين لكيانهم الخسيس، ولا يظهرون قوتهم إلا على الضعفاء من النساء والأطفال

والعُزّل وقصف المدارس والمستشفيات، وتجويع وتعطيش المدنيين الأبرياء... وأما أمام المقاومين فهم فئران تهرب إلى الجحور.

واليهود يعلمون جيدًا أنهم يقاتلون أقوامًا يحبون الموت أشد من حبهم للحياة، عقيدتهم: (قُل هَل تَرَبَّصونَ بِنا إِلّا إِحدَى الحُسنَيَينِ) [التوبة: 52]، لا شيء أحب إليهم من لقاء الله؛ فإما النصر أو الشهادة... وهذه العقيدة هي السلاح الحقيقي في أيدي المجاهدين؛ فإن السلاح ليس بذاته وإنما بضاربه وما في قلبه من قوة الإيمان... ولولا ما مُنِيَت به الأمة من الضعف والخذلان لما كان لهذه الشرذمة من الصهاينة تسلط على مقدساتنا وأراضينا، ولكنهم تسلطوا علينا لما أضحينا شرًّا منهم... ولولا أيضًا هذه الطائفة من المقاومين في أكناف بيت المقدس لأصبحت الأمة مواتًا لا حياة فيها، وصدق فيهم قول رسول الله ﷺ، إذ يقول: (لا تَزالُ طائفَةٌ مِن أُمَّتي ظاهِرينَ علَى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ، حتَّى يَأْتِيَ أمْرُ اللهِ وفي رواية: وهُمْ كَذلكَ)[1].

وإنني على يقين أنه متى عادت الأمة إلى صوابها، وتمسكت بكتاب ربها، وأزاحت عن كاهل أبنائها مآسي الشقاق والخلاف، وتوقفت عن تبعيتها العمياء خلف الغرب، فإن النصر لا بدّ حليفها. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: 55].

(1) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

الانحراف الثامن:
الجدال بالباطل وكثرة السؤال

العناد والاستكبار دافعان إلى الجدال بالباطل والمراء، وقد انتهجت بنو إسرائيل هذا الأسلوب مع أنبيائها، فاستمرءوا الجدال وأكثروا السؤال فعاقبهم الله بالتشديد والحرمان. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذَروني ما تركتُكم؛ فإنَّما أهلَكَ الذين مِن قَبلِكم كَثرةُ سُؤالِهم، واختِلافِهم على أنبيائِهم، ولكنْ ما نَهيتُكم عنه فانتَهوا، وما أمَرتُكم به فأْتوا منه ما استطَعتُم)[1].

ويقول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢ ﴾ [المائدة: 101-102]. أي: «يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تسألوا عن أشياء من أمور الدين لم تؤمروا فيها بشيء، كالسؤال عن الأمور غير الواقعة، أو التي يترتب عليها تشديدات في الشرع، ولو كُلِّفتموها لشقَّتْ عليكم، وإن تسألوا عنها في حياة رسول الله ﷺ وحين نزول القرآن عليه تُبيَّن لكم، وقد تُكلَّفونها فتعجزون

(1) متفق عليه.

عنها، تركها الله معافيًا لعباده منها. والله غفور لعباده إذا تابوا، حليم عليهم فلا يعاقبهم وقد أنابوا إليه»[1]. وقال ابن جزي: «(قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ) وذلك أن بني إسرائيل كانوا يستفتون أنبياءهم عن أشياء، فإذا أمروا بها تركوها فهلكوا»[2]. قلت: إذن فالمقصود العام للآيتين هو أن يقف المؤمنون عند ما أمر الله تعالى به وما نهى عنه، وألا يتجاوزوا ذلك إلى ما لا فائدة فيه؛ لئلا يقعوا في الحرج والمراء كما فعلت بنو إسرائيل من قبل فأخزاهم الله.

وفي قصة البقرة – التي سُمِّيت السورة باسمها – بيان لتعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم، فإن نبي الله موسى – عليه السلام – حين أمرهم بذبح بقرة – من أجل البت في حادثة قتل وقعت في زمانهم[3] – استخفوا به ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: 67]، واستخفافهم بأمر النبي الكريم مما يدل على سفاهة عقولهم وضيق

(1) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص: 124، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – السعودية، الطبعة: الثانية، مزيدة ومنقحة، 1430هـ – 2009 م.

(2) التسهيل في علوم التنزيل، ابن جزيّ الكلبي، (1/ 246)، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى – 1416 هـ (عدد الأجزاء 2).

(3) عَنْ عُبَيْدَةَ السَّلْمَانِيِّ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَقِيمًا لاَ يُولَدُ لَهُ، وَكَانَ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ، وَكَانَ ابْنُ أَخِيهِ وَارِثَهُ، فَقَتَلَهُ ثُمَّ احْتَمَلَهُ لَيْلًا فَوَضَعَهُ عَلَى بَابِ رَجُلٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَصْبَحَ يَدَّعِيهِ عَلَيْهِمْ حَتَّى تَسَلَّحُوا، وَرَكِبَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَالنُّهَى: عَلاَمَ يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ فِيكُمْ؟ فَأَتَوْا مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فأمرهم الله عز وجل أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا ببعض لحمها المقتول؛ فأحياه الله عز وجل ودلهم على قاتله، فكانت معجزة من الله تبارك وتعالى [انظر: تفسير ابن كثير (1/ 294)].

أفقهم، ورغم تأكيد موسى - عليه السلام - بأن الأمر جد حق إلا أنهم لم يرضخوا، وطفقوا يسألون عن أوصافها ودقائق أحوالها ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ [البقرة: 68-71]. فشددوا على أنفسهم وأساءوا الأدب مع ربهم ونبيهم، ولو أنهم التزموا الأمر من البداية وذبحوا أي بقرة لكَفَت واجزأت وتمت لهم المسألة، ولكنهم عصوا وتعنتوا فشدد الله عليهم؛ ولهذا قال بعض الحكماء: «الاستقصاء شؤم». وقال صاحب الكشاف: «وفي قوله (فَذَبَحوها وَما كادوا يَفعَلونَ) استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم، وأنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم، ما كادوا يذبحونها، وما كادت تنتهي سؤالاتهم، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم»[1].

والمسلم إذا أتاه أمر الله بادر إليه ولم يبطئ، وإذا أتاه ما نهى الله انتهى عنه من فوره، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: 36]. ولقد مدح الله في كتابه العزيز عباده المسارعين في طاعته ومرضاته. قال عز وجل: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ

(1) الكشاف للزمخشري، (1/ 152).

﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90]، ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: 61].

والمسارعة في الخيرات من شيم عباد الله الصادقين، ولذلك كل من عاند أمر الله كان فيه خصلة من خصال بني إسرائيل، والعاقل من يبتدر وقته ويعاجل بتوبة نصوح، ألا ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: 48]، وتنافسوا في ميدان الطاعات ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26].

الانحراف التاسع:
قسوة القلوب

أتت قسوة القلوب كنتيجة طبيعية لكل ما ارتكب أهل الكتاب من سوءات؛ فالبعد عن منهج الله يورث قسوة القلب وانعدام الرحمة، وكل الناس يولدون بقلوب بيضاء، فإذا ما ارتكبوا الشر اسودت قلوبهم تدريجيًا، ومع كل معصية ومع كل خطيئة ينكت في قلب المرء نقطة سوداء... وهكذا مع العناد والاستمرار حتى يسوّد القلب كله، ثم يتصلد كأصلب من الحجارة، فلا تنفع فيه تذكرة ولا تهزه موعظة. قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 74]... نعوذ بالله من قسوة القلوب.

ولهذا حذر الله عباده المؤمنين من هذا الداء اللعين الذي لحق أهل الكتاب من قبلهم، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: 16]. أي: «ألم يحن الوقت للذين صدَّقوا الله ورسوله واتَّبعوا هديه، أن تلين قلوبهم عند ذكر الله وسماع

القرآن، ولا يكونوا في قسوة القلوب كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم – من اليهود والنصارى – الذين طال عليهم الزمان فبدَّلوا كلام الله، فقست قلوبهم، وكثير منهم خارجون عن طاعة الله؟ وفي الآية الحث على الرقة والخشوع لله سبحانه عند سماع ما أنزله من الكتاب والحكمة، والحذر من التشبه باليهود والنصارى في قسوة قلوبهم، وخروجهم عن طاعة الله»[1].

وإن الله لما ذكر قسوة القلوب لم يُرِد أن ينقطع بعباده الأمل، أو أن ييأس المسرفون على أنفسهم من تحصيل رحمته وهدايته، فأردف الآية بقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: 17]. «إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ، تَعَالَى، يُلِينُ الْقُلُوبَ بَعْدَ قَسْوَتِهَا، ويَهدي الحَيَارى بَعْدَ ضَلتها، ويفرِّج الْكُرُوبَ بَعْدَ شدَّتِهَا، فَكَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ الْمُجْدِبَةَ الْهَامِدَةَ بِالْغَيْثِ الهتَّان [الْوَابِل] كَذَلِكَ يَهْدِي الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ بِبَرَاهِينِ الْقُرْآنِ وَالدَّلَائِلِ، وَيُولِجُ إِلَيْهَا النُّورَ بَعْدَ مَا كَانَتْ مُقْفَلَةً لَا يَصِلُ إِلَيْهَا الْوَاصِلُ، فَسُبْحَانَ الْهَادِي لِمَنْ يَشَاءُ بَعْدَ الْإِضْلَالِ، وَالْمُضِلِّ لِمَنْ أَرَادَ بَعْدَ الْكَمَالِ، الَّذِي هُوَ لِمَا يَشَاءُ فَعَّالٌ، وَهُوَ الْحَكَمُ الْعَدْلُ فِي جَمِيعِ الْفِعَالِ، اللَّطِيفُ الخبير الكبير المتعال»[2].

وفيه أيضًا إرشاد العباد التي الطرائق التي بها تلين القلوب وتُغتَفرُ الذنوب. قال ابن عاشور – رحمه الله –: «والمَقْصُودُ الإرْشادُ إلى وسيلَةِ الإنابَةِ إلى اللَّهِ والحَثِّ عَلى تَعَهُّدِ النَّفْسِ بِالمَوْعِظَةِ، والتَّذْكِيرُ بِالإقْبالِ عَلى

(1) التفسير الميسر، ص: 539.
(2) تفسير ابن كثير، (8/ 21).

القُرْآنِ وتَدَبُّرِهِ وكَلامِ الرَّسُولِ ﷺ وتَعْلِيمِهِ وأنَّ في اللَّجَأِ إلى كِتابِ اللَّهِ وسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ نَجاةً وفي المَفْزَعِ إلَيْهِما عِصْمَةً وقَدْ قالَ النَّبِيءُ ﷺ: (تَرَكْتُ فِيكم ما إنْ أخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا؛ كِتابَ اللَّهِ وسُنَّتِي)»[1].

فكلما ازداد المرء بُعدًا عن منهج الله وهَدي حبيبه محمد ﷺ كلما تمكنت القسوة من قلبه، وقد قال بعض السلف: «ما ضُرِبَ عبد بعقوبة أعظم من قسوة من القلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم». وقد جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إلى النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ؟ فَما نُقَبِّلُهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أَوَأَمْلِكُ لكَ أنْ نَزَعَ اللَّهُ مِن قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ![2].

فكان في تعاهد القلب بذكر الله وتدبر القرآن والعمل بمقاصد الشريعة السمحاء نجاة المؤمن من هذا الداء، وباب التوبة إلى الله مفتوح دائمًا ما دامت بالمرء الحياة، يقول رسول الله ﷺ: (إن المؤمنَ إذا أذنبَ نُكِتَتْ نكتةٌ سوداءُ في قلبِه، فإن تابَ واستغفرَ صُقِلَ قلبُهُ، وإن لم يتبْ زادَتْ حتى تعلوَ قلبَهُ)[3]. والخيارُ لك يا عبد الله!

(1) التحرير والتنوير، (11/ 310).
(2) متفق عليه.
(3) أخرجه الترمذي (3334)، وابن ماجه.

الانحراف العاشر:
الإفساد في الأرض

إن القلوب القاسية تحملها نفوس بلا ضمير؛ ولذلك فهي لا تتردد في الفتك بكل شيء أمامها في سبيل الحصول على مصالحها الخاصة، وقد عاث أهل الكتاب – وبالأخص بنو إسرائيل – في هذه الأرض فسادًا من أجل إدراك عرض حقير من الدنيا، وتابعهم في ذلك الملحدون فساروا على نهجهم، فنشأت «البراجماتية» أو «النفعية» «ومبادئ المصلحة» التي تبيح للأفراد والأمم الوصول إلى مصالحهم الذاتية ولو على دماء الأبرياء وسحق المبادئ والأخلاق... ومن هنا سأوضح بعض صور إفساد أهل الكتاب في الأرض لاتخاذ الحذر منها.

أ- نقض العهود

نقض أهل الكتاب عهودهم مع الله فبدّلوا وحرّفوا وصدوا عن طريق الحق. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: 187]. قال السعدي – رحمه الله –: «وأما الذين أوتوا الكتاب، من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبأوا

بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرؤا على محارم الله، وتهاونًا بحقوق الله، وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمنا قليلا، وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق، (فبئس ما يشترون) لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه -وهو بيان الحق، الذي فيه السعادة الأبدية»[1].

وإن قومًا نقضوا عهدهم مع الله لهو أهون عليهم أن ينقضوا عهدهم مع البشر، وانظر إلى اليهود وما جُبلوا عليه من نبذ الوعود واختراق الشروط والاتفاقيات، فلا تكاد تجد لهم كلمة ولا ميثاق؛ ولهذا قال الله تعالى فيهم: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: 100].

قال صاحب الكشاف: «واليهود موسومون بالغدر ونقض العهود، وكم أخذ اللَّه الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا، وكم عاهدهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فلم يفوا (الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ)»[2].

وقال الحسن البصري: «لَيْسَ فِي الْأَرْضِ عَهْدٌ يُعَاهِدُونَ عَلَيْهِ إِلَّا نَقَضُوهُ وَنَبَذُوهُ، يُعَاهِدُونَ الْيَوْمَ، وَيَنْقُضُونَ غَدًا»[3].

(1) تفسير السعدي، ص: 160.
(2) الكشاف، (1/ 171).
(3) انظر: اليسير في اختصار تفسير ابن كثير، (1/ 134).

ونقض العهود أحد أعظم صور الفساد في الأرض؛ لما فيه من صد الناس عن سبيل الحق، ولذلك حث الله عباده المؤمنين على الوفاء بالكلمة واحترام الوعد، فقال عز من قائل في مطلع سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]. وقال في سورة الإسراء: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: 34]. وحذرّهم - سبحانه وتعالى - مغبة الغدر ولحس الكلمة وسوء عاقبة التلاعب بالأيمان، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [النحل: 92]. أي: «ولا ترجعوا في عهودكم، فيكون مَثَلكم مثل امرأة غزلت غَزْلًا وأَحْكَمَتْه، ثم نقضته؛ تجعلون أيمانكم التي حلفتموها عند التعاهد خديعة لمن عاهدتموه، وتنقضون عهدكم إذا وجدتم جماعة أكثر مالًا ومنفعة من الذين عاهدتموهم، إنما يختبركم الله بما أمركم به من الوفاء بالعهود وما نهاكم عنه من نقضها، ولَيُبَيِّنَنَّ لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون في الدنيا من الإيمان بالله ونبوة محمد ﷺ»[1].

فالمسلم ملتزم بعهده، وفيٌّ لكلمته، بارٌّ بقَسَمه - ما لم يكن قسمًا على قطيعة أو حرام فإنه يكفر عنه -، لا تلقي به الأهواء في كل جانب لتحقيق مصالحه على حساب أخلاقه ودينه ومبادئه، وقد ضرب النبي ﷺ في صلح الحديبية المثل في الوفاء بالكلمة حتى قبل أن تُكتَب وتوَّثق، فرد أبا جندل إلى قريش احترامًا للكلمة وصدقًا في الوعد.

(1) التفسير الميسر، ص: 278.

وإن المسلم ليلتزم بهذا المبدأ حتى في خضم الظروف الاستثنائية، فإن لزم الأمر بإنهاء معاهدة لقرائن دلت على نقض الطرف الآخر للعهد فعليه أن يخطرهم بذلك أولًا، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: 58]. أي: «وَإِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْم معاهدين خِيانَةً ونكثا بأمارات تلوح لك (فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ) فاطرح إليهم العهد (عَلى سَواءٍ) على طريق مستوٍ قصد، وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم إخباراً مكشوفا بينا أنك قطعت ما بينك وبينهم، ولا تناجزهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ)»[1]. فانظر إلى شريعة القرآن السمحة وما بدّل وحرّف أهل الكتاب لتعرف الفارق! فشتّان ما بينهما!

ب- أكل الربا

الربا كبيرة من أعظم الكبائر، ومآلها غير محمود العواقب؛ فإنها مما يفسد المجتمعات بإثارة الشحناء والبغضاء بين الناس وإعلاء صيحات الأنانية والاستغلال، فانتهاز عَوَز المحتاج لتحصيل المكاسب مما يقدح في الدين والمروءات، ولقد استحل أهل الكتاب الربا وأكْل أموال الناس بالباطل فاستحقوا غضب الله وسخطه. قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: 160-161].

(1) الكشاف للزمخشري، (2/ 231).

ومع بزوغ نجم أهل الكتاب في العصر الحديث نشأت اقتصاديات كاملة على الأنظمة الربوية، وأكثرها شراهة ووحشية الأنظمة الرأسمالية التي لا تتردد في سحق الفقراء والمحتاجين وإغراء الجهلة بشهوة الاستهلاك لتحقيق ثروات مالية منقطعة النظير... ولن تتعجب حين تعلم أن عائلة روتشيلد اليهودية هي التي أسست مختلف الأنظمة البنكية والتجارية في كافة أنحاء ودول أوروبا منذ القرن السادس عشر... ثم وبحلول القرن التاسع عشر امتلكت عائلة روتشيلد أكبر ثروة خاصة في العالم وكذلك في تاريخ العالم الحديث.

غير أن الأمر لم يقف عند حدود المعاملات المالية بل امتد إلى الأنظمة السياسية؛ فإن المال والسلطة قرينان في دائرة الفساد، فكانت عائلة روتشليد الأقرب إلى ملوك ورؤساء بريطانيا العظمى بتقديمهم الدعم المالي في الحروب، ولهم اليد الطولى في إصدار وعد بلفور وتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين[1].

وما زال اليهود متحكمين في مفاصل التجارة العالمية بالتعاون مع النصارى حتى يومنا هذا، فيتصدر قائمة أثرياء أمريكا للعام 2018 طبقًا لمجلة فوربس الأمريكية خمسة من اليهود، على رأسهم مارك زوكربرج مالك شركة ميتا المسئولة عن عدد من تطبيقات التواصل

(1) انظر: روتشليد: من مهووس بالحيوانات إلى استصدار وعد بلفور (مقال على موقع BBC بالعربي)
https://www.bbc.com/arabic/in-depth-41818760

الاجتماعي (فيسبوك، انستجرام، وواتساب)، ويليه لاري إليسون صاحب شركة أوراكل العملاقة لصناعة البرمجيات، ويليهما كل من لاري بايج وسيرجي براين مؤسسا شركة جوجل - التي تمثل أكثر شركات الإنترنت ربحية -، والخامس مايكل بلومبيرج عمدة مدينة نيويورك السابق[1].

ومن القائمة السابقة يتضح أن اليهود قد توسعوا تجاريًا منذ بدايات القرن العشرين بالاستحواذ على صناعة الإعلام ووسائلها المختلفة؛ من مواقع التواصل الاجتماعي والقنوات التليفزيونية والصحافة، وهو ما يبدو جليًا لنا الآن معشر العرب في التضييق الممارس على كل من يحاول دعم القضية الفلسطينية ولو بكلمة! فقد لجأت إدارة الفيسبوك إلى حظر آلاف من الحسابات الشخصية في منصتها منذ اندلاع حرب غزة في السابع من أكتوبر 2023م؛ وذلك لمجرد كتابتهم بعض الكلمات التي تستنكر إبادة المدنيين وقتل الأطفال الفلسطينيين، في مشهدٍ يفضح سياسة الكيل بمكيالين والصمت التام إزاء الضحايا طالما أنهم من المسلمين!

وتأثير اللوبي الصهيوني شديد الوضوح في أمريكا وأغلب دول أوروبا؛ فإن المال يحتاج إلى السياسة والسياسة تحتاج إلى المال، وكلاهما يحتاج إلى توجيه الرأي العام عبر وسائل الإعلام. ولنأخذ مثال بشركة

(1) 5 Jews make Forbes' list of top 10 wealthiest Americans (Article - Times of Israel):
https://www.timesofisrael.com/5-jews-make-forbes-list-of-top-10-wealthiest-americans/

BlackRock ومديرها التنفيذي اليهودي الصهيوني لاري فينك Larry Fink؛ والذي يدعم ماليًا حروب الإبادة في غزة[1]؛ إذ الشركة تسيطر على أغلب صناعات العالم وتدير تريليونات الدولارات بما قد يفوق أصول بعض الدول، وتمتلك الشركة أكثر من 90٪ من وسائل الإعلام الأمريكية، فهي تستحوذ على أسهم كبيرة في شبكات من أشهرها: FOX, CNN, CBS, MSN, COMCAST, TimeWarner, Disney, Netflix, Amazon والكثير من الشبكات الإخبارية الأخرى، وعدد ضخم من القنوات التليفزيونية والمجلات والصحف وإنتاج أفلام هوليود.

بالإضافة إلى السيطرة على عدد كبير من البنوك والأنظمة المالية الأمريكية والعالمية خاصة في المملكة المتحدة وألمانيا وغيرها، سواء عادية أو إلكترونية، بما في ذلك ڤيزا وباي بال.

وقد ساعدت الرأسمالية على تأسيس أمثال تلك الشركات، فتجد سلاسل عالمية من المطاعم ومحلات الملابس وشركات التجميل... وغيرها، والتي تصب أموال كافة مستهلكي دول العالم في جيوب اليهود، وبالطبع فإن هذه الشركات قائمة على النظام الربوي، مما عرّض الاقتصاد العالمي إلى عدد من الأزمات التي تكاد تفتك به حاليًا، ولا تسأل عن عدد الأزمات التي تعرضت لها أغلب دول العالم في السنين

(1) The People›s Forum | BlackRock Funds Genocide Against Palestinians - The People›s Forum
https://peoplesforum.org/blog_post/blackrock-funds-genocide-against-palestinians/

الأخيرة! فإن اليهود والنصارى ومن شايعهم من أرباب المذهب البراجماتي يدفعون العالم دفعًا نحو الهلاك؛ ولذلك حرّم الله عز وجل الربا تحريمًا تامًا؛ وتوّعد الآخذين به وعدًا شديدًا. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: 278-279]. فمن أصرّ على التعامل بالربا فليأذن بحرب من الله ورسوله عليه... ومَن له قِبَل بحرب الله ورسوله؟! والأكيد أن هذه المعاملات الظالمة المحرمة إلى زوال بإذن الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36].

وإنه لا خلاص للعالم من تلك الأزمات العالمية المتتالية إلا بالمعاملات الاقتصادية الإسلامية؛ فإن الله تعالى لم يحرم التجارة والبيع، بل حث عليهما وأباح طلب الرزق الحلال؛ ومن لا يملك قوته لا يملك قراره، وإنما حرم عز وجل استغلال عوز المحتاجين واستئثار طائفة من الناس بالثراء دون غيرها؛ فقد قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 275].

ولذلك كان لزامًا على المسلمين أن يعودوا إلى مركز الريادة لانتشال أنفسهم وانتشال العالم من مهالك الربوية التي تكاد تعصف به في أودية الردى؛ وليحذروا مسلك أهل الكتاب في التهاون بأكل أموال الناس بالباطل، وليبتغوا مما في الأرض حلالًا طيبًا.

ج- الوقيعة وإثارة الفتن

تشغل إسرائيل المركز الثامن على مستوى العالم كأحد كُبريات الدول المتخصصة في تصدير الأسلحة[1]؛ وسوق السلاح لا ينتشي إلا بوجود الصراعات والنزاعات التي لا تنتهي، والتي دأب اليهود على تأجيجها أينما حلوا.

فمُذ سكنت اليهود جزيرة العرب، عكفت على تأجيج العداوة بين الأوس والخزرج في المدينة المنورة وإثارة النزاعات بينهما؛ إذ كانت صناعة السلاح تحت يديها... وأينما كانت المصلحة كان اليهود ولو على حساب الأخلاق ودماء الأبرياء... فالبراجماتية متأصلة فيهم من قديم الأزل، من قبل حتى نشأة هذا المصطلح الفلسفي وبزوغه في ساحة الفكر.

ولن يختلف الآن الأمر كثيرا؛ فتواجد السرطان الصهيوني في منطقة الشرق الأوسط نجح في إشعال المنطقة، واستطاعت اليهود وممولوها من النصارى الحاقدين إثارة الشقاق والنزاعات بين الدول العربية؛ ففي حين تتصدر أمريكا وإسرائيل قائمة الدول المصدرة للأسلحة،

(1) https://www.timesofisrael.com/israel-named-worlds-8th-largest-arms-exporter/

فإن الدول العربية تتصدر قائمة الدول المستوردة لها؛ وذلك كي يرفعوه في وجوه بعضهم البعض!

فيوضح مركز ستوكهولم العالمي لدراسة السلام أن بين العامين (2014 – 2018) أتت المملكة العربية السعودية في المركز الأول كأكبر دولة مستوردة للسلاح، ووقعت هذه السنوات الأربع في أوج حرب السعودية مع جارتها اليمن. ثم جاءت مصر في المركز الثالث كأحد كبرى الدول المستوردة للسلاح وتلتها الجزائر في المركز الخامس[1].

فاستطاعت يهود أن تصنع السلاح ثم صدّرته لنا كي يقتل بعضنا بعضًا، ولا يخفى على أحد ما وصل إليه حال الدول العربية والإسلامية من التشرذم والفُرقة والتسلط على بعضهم بدلًا من التظاهر على عدوهم، لكن الله مدحض كيد الكافرين لا محالة – ولو بعد حين –. فقال عز وجل في حق اليهود: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64].

قال ابن كثير: «(وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) يَعْنِي: أَنَّهُ لَا تَجْتَمِعُ قُلُوبُهُمْ، بَلِ الْعَدَاوَةُ وَاقِعَةٌ بَيْنَ فِرَقِهِم بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ؛ دَائِمًا لِأَنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى حَقٍّ»[2].

(1) https://www.sipri.org/sites/default/files/2019-03/fs_1903_at_2018_0.pdf

(2) اليسير في اختصار تفسير ابن كثير، (1/ 572).

وقال القرطبي – رحمه الله –: «(كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ) أي: كُلَّمَا جَمَعُوا وَأَعَدُّوا شَتَّتَ اللَّهُ جَمْعَهُمْ... وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالنَّارِ هُنَا نَارُ الْغَضَبِ، أَيْ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارَ الْغَضَبِ فِي أَنْفُسِهِمْ وَتَجَمَّعُوا بِأَبْدَانِهِمْ وَقُوَّةِ النُّفُوسِ مِنْهُمْ بِاحْتِدَامِ نَارِ الْغَضَبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ حَتَّى يَضْعُفُوا؛ وَذَلِكَ بِمَا جَعَلَهُ مِنَ الرُّعْبِ نُصْرَةً بَيْنَ يَدَيْ نَبِيِّهِ ﷺ»[1].

وقال السعدي – رحمه الله –: «(كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ) ليكيدوا بها الإسلام وأهله، وأبدوا وأعادوا، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم (أَطْفَأَهَا اللَّهُ) بخذلانهم وتفرق جنودهم، وانتصار المسلمين عليهم»[2].

(وَيَسعَونَ فِي الأَرضِ فَسادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ المُفسِدينَ) أي: «من سجيتهم أنهم دائمًا يسعونَ في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته»[3].

د- سفك الدماء وارتكاب الإبادات

ثم إنه من مظاهر إفساد أهل الكتاب في الأرض تعطشهم لسفك الدماء وارتكاب المذابح بلا أدنى شفقة أو رحمة، وتاريخ الكنيسة الكاثوليكية مع المهرطقين يغني عن التعريف، ثم حروبها الصليبية ضد المسلمين، والتي ارتكبت خلالها المذابح بحق آلاف الأبرياء من النساء والأطفال في بيت المقدس، وهو نفس الحال الذي نراه الآن مما تفعله يهود بالفلسطينيين من إبادات جماعية بشتى أنواع الأسلحة المحرمة دوليًا.

---

(1) تفسير القرطبي، (6/ 240 – 241).
(2) تفسير السعدي، ص: 237.
(3) اليسير في اختصار تفسير ابن كثير، (1/ 572).

والحقيقة أن كتابهم المحرَّف هو الذي يدفعهم إلى هذه الوحشية، بل إن أحدهم ليقترب إلى الله - في اعتقاده الواهم - بدماء الأطفال الأبرياء والنساء المستضعفات. جاء في سفر العدد في إطار الحديث عن قتال المديانيين قوله: (فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلًا بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا)[1]. وفي صموئيل: (فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ، وَلاَ تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا)[2].

فجذور تعطشهم للقتل والدماء ممدودة إلى كتابهم الذي طاله التحريف بلا شك، وشتان ما بين هذا الفساد وما جاء به الإسلام من ضوابط في تحجيم القتال. جاء عن بريدة بن الحصيب الأسلمي - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ كان إذا بعث سريةً قال: «اغزوا ولاَ تغدروا ولاَ تغلُّوا ولاَ تمثِّلوا ولاَ تقتلوا وليدًا». وفي رواية عن أنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول: «انطَلِقوا باسم الله، وبالله، وعلى مِلَّة رسول الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلًا، ولا صَغيرًا، ولا امرأةً، ولا تَغُلُّوا، وضُمُّوا غنائمَكم، وأَصْلِحُوا، وأَحْسِنُوا؛ فإن الله يُحِبُّ المحسنينَ».

هذا بالإضافة إلى ما جاءت به الشريعة السمحاء من الحث على حُسن معاملة الأسرى والإحسان إليهم، فيمدح الله عباده المحسنين، فيقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠﴾ [الإنسان: 8-10].

(1) العدد (31: 17).
(2) صموئيل الأول (15: 3).

هـ - السحر والشعوذة

عُرِفَت يهود بممارستها للسحر وتمكنها فيه، رغم أن التوراة نهتهم عن ذلك. فقد جاء في سفر التثنية أن موسى عليه السلام قد نهى قومه عن اتباع مسلك كهنة اللاويين، فقال: «مَتَى دَخَلْتَ الأَرْضَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ، لاَ تَتَعَلَّمْ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ رِجْسِ أُولئِكَ الأُمَمِ. لاَ يُوجَدْ فِيكَ مَنْ يُجِيزُ ابْنَهُ أَو ابْنَتَهُ فِي النَّارِ، وَلاَ مَنْ يَعْرُفُ عِرَافَةً، وَلاَ عَائِفٌ وَلاَ مُتَفَائِلٌ وَلاَ سَاحِرٌ، وَلاَ مَنْ يَرْقِي رُقْيَةً، وَلاَ مَنْ يَسْأَلُ جَانًّا أَوْ تَابِعَةً، وَلاَ مَنْ يَسْتَشِيرُ الْمَوْتَى؛ لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ الرَّبِّ. وَبِسَبَبِ هذِهِ الأَرْجَاسِ، الرَّبُّ إِلهُكَ طَارِدُهُمْ مِنْ أَمَامِكَ»[1].

إلا أنهم أصروا على العصيان واتبعوا مسلك الشيطان، وساعدهم على ذلك تأثرهم ببيئة مصر الفرعونية التي استشرى فيها السحر والسحرة. قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 102].

(1) التثنية (18: 9 – 12).

قال ابن عاشور: «وكانَ العَرَبُ يَزْعُمُونَ أنَّ أعْلَمَ النّاس بالسِّحْر اليَهُودَ والصّابئَةَ وهم أهْلُ بابلَ، ومَساقُ الآيَةِ يَدُلُّ عَلى شُهْرَةِ هَؤُلاءِ بالسِّحْر عِنْدَ العَرَب. وقَد اعْتَقَدَ المُسْلِمُونَ أنَّ اليَهُودَ في يَثْرِبَ سَحَرُوهم فَلا يُولَدُ لَهم؛ فَلذَلكَ اسْتَبْشَرُوا لَمّا وُلِدَ عَبْدُ اللَّه بْنُ الزُّبَيْر وهو أوَّلُ مَوْلُودٍ للْمُهاجرينَ بالمَدينَة كَما في صَحيح البُخاريِّ. ولذَلكَ لَمْ يَكْثُرْ ذكْرُ السِّحْر بَيْنَ العَرَب المُسْلمينَ إلّا بَعْدَ أنْ هَاجَرُوا إلى المَدينَة إذْ قَدْ كانَ فيها اليَهُودُ وكانُوا يُوهِمُونَ بأنَّهم يَسْحَرُونَ النّاسَ»[1].

وقد حاولت يهود أن تسحر النبي ﷺ، فأعلَم الله تعالى نبيه بذلك. وكان كعب الأحبار، وهو أحد كبار التابعين – كان يهوديًا فأسلم – لا يلبث أن يقول متعوذًا من شر يهود وسحرهم: «لَوْلَا كَلِمَاتٌ أَقُولُهُنَّ لَجَعَلَتْنِي يَهُودُ حِمَارًا، فَقِيلَ لَهُ: وَمَا هُنَّ؟ فَقَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِ اللَّهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَيْسَ شَيْءٌ أَعْظَمُ مِنْهُ وَبِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ وَبِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى كُلِّهَا مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَبَرَأَ وَذَرَأَ»[2].

ولا شك أن السحر من طرائق الإفساد في الأرض ومحاربة لله ورسوله، ولذلك عدّه الإسلام من الكبائر. يقول رسول الله ﷺ: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ وما هُنَّ؟ قالَ: الشِّرْكُ

(1) التحرير والتنوير، (1/ 594).

(2) الاستذكار، ابن عبد البر، (8/ 445)، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى: 1421 .هـ – 2000 .م (عدد الأجزاء 9).

باللَّهِ، والسِّحْرُ... إلى آخر الحديث)[1]. وذهب مالك إلى أن السحر كفر وشرك، وأن الساحر يُقتَل ولا يُستتاب. وكذلك جعله أبو حنيفة في حكم المرتد. وأما الشافعي فذهب إلى أنه يُستتاب أولا، وإن اعترف أن سحره قد قتل نفسًا فإنه يُقتَلُ قودًا.

«فَكانَ السِّحْرُ قَرِينَ خَباثَةِ نَفْسٍ، وفَسادِ دِينٍ، وشَرِّ عَمَلٍ، وإرْعابٍ وتَهْوِيلٍ عَلى النّاسِ، مِن أجْلِ ذَلِكَ ما فَتِئَتِ الأدْيانُ الحَقَّةُ تُحَذِّرُ النّاسَ مِنهُ وتَعُدُّ الِاشْتِغالَ بِهِ مُرُوقًا عَنْ طاعَةِ اللَّهِ تَعالى؛ لِأنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلى اعْتِقادِ تَأْثِيرِ الآلِهَةِ والجِنِّ المَنسُوبِينَ إلى الآلِهَةِ في عَقائِدِ الأقْدَمِينَ»[2].

إلا أن بعض ضعاف المسلمين قد تأثروا بدعاية الدجالين والسحرة والمشعوذين، فدفعهم الجهل إلى طرق أبواب هؤلاء الفجار، وأنفقوا الأموال الطائلة لمحاولة جلب نفع مأمول أو دفع ضر موهوم، ولو أنهم فقهوا لعلموا أن (وَما هُم بِضارّينَ بِهِ مِن أَحَدٍ إِلّا بِإِذنِ اللَّهِ) [البقرة: 102]؛ فالنافع والضار هو الله؛ وإنه متى ما تحصن المسلم بكتاب الله والأذكار لم يضره شيء وما مسه شيطان، وقد قال النبي ﷺ في فضل سورة البقرة: (اقْرَؤُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، فإنَّ أَخْذَها بَرَكَةٌ، وتَرْكَها حَسْرَةٌ، ولا تَسْتَطِيعُها البَطَلَةُ. قالَ مُعاوِيَةُ: بَلَغَنِي أنَّ البَطَلَةَ: السَّحَرَةُ)[3].

كانت تلك طائفة من تنبيهات القرآن لتحذير المؤمنين من انحرافات أهل الكتاب؛ وإنه متى علم المسلمون أنهم ليسوا معصومين تداركوا

(1) متفق عليه.
(2) التحرير والتنوير، (1/ 598).
(3) أخرجه مسلم في صحيحه: (804).

أخطاءهم قبل فوات الأوان، وأفاقوا من كبوتهم قبل أن يصيبهم ما أصاب أهل الكتاب من مختلف العقوبات، وقد حذر النبي ﷺ أمته من الافتتان بهم والاغترار بانفتاح الدنيا عليهم، فقال ﷺ: (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن قَبْلَكُمْ شِبْرًا بشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بذِرَاعٍ، حتَّى لو سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللَّهِ، اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قالَ: فَمَنْ؟)[1]... ولذلك لزم التحذير!

(1) متفق عليه.

التأمل الثاني عشر
ليسوا سواء

رغم ما سرد القرآن من مساوئ أهل الكتاب، ورغم ما فرض الله عليهم من ألوان العقوبات، إلا أن سمة العدل كانت حاضرة، ولهجة التعميم كانت قاصرة؛ فالمساواة في الظلم ليست عدل كما يُقَال؛ بل لا بدّ من إعطاء كل ذي حق حقه. يقول الله عز وجل: ﴿ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [آل عمران: 113-115]. أيْ: «لَيْسَ جَمِيعُ أَهْلِ الكتاب مُتَشارِكِينَ في الاتِّصاف بما ذُكِرَ مِنَ القَبائِحِ والابْتِلاء بما يَتَرَتَّبُ عَلَيْها مِنَ العُقُوبات... وهُمُ الَّذِينَ أسْلَمُوا مِنهم كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلامٍ وثَعْلَبَةَ بْنِ سَعِيدٍ وأُسَيْدِ بْنِ عُبَيْدٍ وأضْرابِهِمْ»[1].

«فلمّا بيَّن الله سبحانه حال غالب أهل الكتاب، بيَّن حال طائفة منهم مستقيمة على الحق قائمة به، فقال: ليس أهل الكتاب متساوين في حالهم،

(1) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (المعروف بتفسير أبو السعود)، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، (2/ 73)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (لم أقف على سنة الطبع) (عدد الأجزاء 9).

بل منهم طائفة مستقيمة على دين الله، قائمة بأمر الله ونهيه، يقرءون آيات الله في ساعات الليل وهم يُصَلُّون لله، وكانت هذه الفئة قبل بعثة النبي محمد ﷺ، ومن أدرك منهم هذه البعثة أسلم. ومن صفاتهم أنهم: يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانًا جازمًا، ويأمرون بالمعروف والخير، وينهون عن المنكر والشر، ويبادرون إلى أفعال الخيرات، ويغتنمون مواسم الطاعات، وأولئك الذين صلحت نياتهم وأعمالهم. وما يفعله هؤلاء من خير قليلًا كان أو كثيرًا فلن يضيع عليهم ثوابه، ولن ينقص أجره، والله عليم بالمتقين الذين يمتثلون أوامره، ويجتنبون نواهيه»[1].

فوعد الله المستجيبين منهم الثواب الجزيل؛ جزاء إيمانهم برسلهم ثم إيمانهم بمحمد ﷺ، وإيمانهم بكتابهم الأول ثم إيمانهم بكتابه الخاتم، فبشرهم تعالى في كتابه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: 52-54].

ولغة التعميم لغة جائرة؛ تنم عن ضيق العقول وحنق الصدور، وحاشا لكلام الله أن يشابه كلام الجهلاء، بل اعتمد القرآن مبدأ العدل والإنصاف؛ فاستخدم أسلوب الاستثناء في عرض جنايات أهل الكتاب. كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: 83]، وقوله: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 246]، وقوله: ﴿وَلَا

(1) المختصر في التفسير [باختصار وتصرف]، ص: 64.

نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: 13]. بالإضافة إلى استخدام ألفاظ التغليب مثل: (كثيرا، وأكثرهم) لتخليص القارئ من وهم الشمولية والتعميم، وذلك نحو ما ورد في سورة المائدة: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: 62]، ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة: 80]، (وَلَو كانوا يُؤمِنونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَما أُنزِلَ إِلَيهِ مَا اتَّخَذوهُم أَولِياءَ وَلكِنَّ كَثيرًا مِنهُم فاسِقونَ) [المائدة: 81].

فمبدأ العدل القرآني يحث على الإنصاف ولو مع ألد الأعداء، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: 8]. والشنآن هو الكراهية. أي: ولا يحملنّكم كراهية قوم أو خصومتهم على ترك العدل والإنصاف معهم؛ فاتقوا الله وخافوا عقابه؛ فإن العدل أقرب إلى تقواه.

وقد نزلت آيات بينات من سورة النساء لتبرئة رجل يهودي اتهم زورًا بالسرقة؛ وعاتب الله تبارك وتعالى فيها نبيه ﷺ لمجرد ميل قلبه في هذه القضية، قال عزَّ وجل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء: 105]. وقصة الآية أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ: طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ أَحَدُ بَنِي

ظَفَرِ بْنِ الْحَارِثِ سَرَقَ دِرْعًا مِنْ جَارٍ لَهُ يُقَالُ لَهُ: قَتَادَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَكَانَتِ الدِّرْعُ فِي جِرَابٍ فِيهِ دَقِيقٌ، فَجَعَلَ الدَّقِيقُ يَنْتَثِرُ مِنْ خَرْقٍ فِي الْجِرَابِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الدَّارِ وَفِيهَا أَثَرُ الدَّقِيقِ، ثُمَّ خَبَّأَهَا عِنْدَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ يُقَالُ لَهُ: زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ، فَالْتُمِسَتِ الدِّرْعُ عِنْدَ طُعْمَةَ فَلَمْ تُوجَدْ عِنْدَهُ، وَحَلَفَ لَهُمْ: وَاللَّهِ مَا أَخَذَهَا وَمَا لَهُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ، فَقَالَ أَصْحَابُ الدِّرْعِ: بَلَى وَاللَّهِ قَدْ أَدْلَجَ عَلَيْنَا فَأَخَذَهَا وَطَلَبْنَا أَثَرَهُ حَتَّى دَخَلَ دَارَهُ، فَرَأَيْنَا أَثَرَ الدَّقِيقِ. فَلَمَّا أَنْ حَلَفَ تَرَكُوهُ وَاتَّبَعُوا أَثَرَ الدَّقِيقِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مَنْزِلِ الْيَهُودِيِّ فَأَخَذُوهُ، فَقَالَ: دَفَعَهَا إِلَيَّ طُعْمَةُ بْنُ أُبَيْرِقٍ، وَشَهِدَ لَهُ أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَتْ بَنُو ظَفَرٍ وَهُمْ قَوْمُ طُعْمَةَ: انْطَلَقُوا بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ، فسألوه أَنْ يُجَادِلَ عَنْ صَاحِبِهِمْ، وَقَالُوا: إِنْ لَمْ تَفْعَلْ هَلَكَ صَاحِبُنَا وَافْتُضِحَ وَبَرِئَ الْيَهُودِيُّ، فَهَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَفْعَلَ، وَكَانَ هَوَاهُ مَعَهُمْ وَأَنْ يُعَاقِبَ الْيَهُودِيَّ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) الْآيَةَ كُلَّهَا، وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ[1]. ثم استمر عتاب الله تعالى لنبيه ﷺ لأكثر من سبع آيات بعدها، وفي سورة من أكبر سور القرآن الكريم لمجرد ميل طرأ في نفسه وعظيم رجائه وأمله أن يكون المسلم صادقًا بريئًا وأن يكون اليهودي هو فعلا من اقترف هذه الجريمة. قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ

(1) أسباب النزول للواحدي، ص: 183.

بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: 106-113].

إنه العدل القرآني المتجرد عن الأهواء، الذي لا يعرف تصنيفًا أو ميلًا؛ ولذلك نزلت الآيات الكريمة ببراءة اليهودي ثم العتاب.

وبالعدل قوام الحياة، وبالعدل قامت الأرض والسماوات، وهو الغاية التي من أجلها أُرسِلَت الرسل وأُنزلت الكتب؛ فالله هو الحق، ومنه الحق، وقوله الحق. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]. وهو الأمر الإلهي الذي أوجبه الله على عباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

فالكل سواسية أمام ميزان العدل، والمؤمن مطالبٌ بالإنصاف مع الجميع؛ القريب والغريب، والعدو والصديق، والغني والفقير، والقوي والضعيف، ولو على نفسه والوالدين والأقربين. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾ [النساء: 135]... فجاهد النفس في إنصاف الناس، وتأمل منهج العدل في القرآن.

التأمل الثالث عشر
التدبر للجميع

إن أحد أهم مقاصد تنزيل القرآن الكريم هو تدبر آياته طلبًا للهداية وقصدًا للحق. يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: 29]. أي: «كتاب أنزلناه إليك بقدرتنا ورحمتنا - أيها الرسول الكريم - كثير الخيرات والبركات، وجعلناه كذلك ليدبروا آياته ويتفكروا فيما اشتملت عليه من أحكام حكيمة، وآداب قويمة، وتوجيهات جامعة لما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم..»[1].

والتدبر من (دَبَرَ) وهو آخر الشيء وخلفه، ومنه قول رسول الله ﷺ: (ولا تدابروا) أي: لا يدير كل منكم ظهره لصاحبه. ومنها (التدبر) وهو: التفكر في أواخر الأمور وعواقبها. قال ابن منظور: «ودَبَّرَ الأَمْرَ وتَدَبَّره: نَظَرَ فِي عَاقِبَتِه»[2].

وأما المعنى الاصطلاحي للتدبر فهو: (عميق التفكر في معاني كلام الله، وإعمال النظر في عواقبها من تأثر قلب وعمل جوارح)[3].

(1) انظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (12/ 156).

(2) لسان العرب، ابن منظور، (4/ 273)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة، 1414 هـ (عدد الأجزاء: 15).

(3) مبادئ تدبر القرآن الكريم، عبد المحسن بن زبن المطيري، ص: 20، مركز تدبر، الرياض، الطبعة الثانية، 1438. هـ - 2017.م.

ومن المعنيين اللغوي والاصطلاحي يتبين لنا أن الغرض الرئيس من الأمر الإلهي بتدبر القرآن الكريم هو التفاعل مع آياته، سواء كان هذا التفاعل معنويًا أو حسيًا. فأما التفاعل المعنوي فهو بتأثر القلب بمعانيه، وأما التفاعل الحسي فهو بالمسارعة إلى العمل بأوامره ونواهيه. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: 23].

وقد تفاعل النبي ﷺ والصحابة الكرام مع القرآن فكانوا له خير سفراء وعاملين. يقول حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه –: «كان ﷺ إذا مرَّ بآيةِ خوفٍ تعوَّذَ، و إذا مرَّ بآيةِ رَحمةٍ سألَ، و إذا مرَّ بآيةٍ فيها تَنزيهُ اللهِ سبَّحَ»[1].

وكان صلى الله عليه وسلم يحب سماع القرآن والتلاوات الطيبات. يقول عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه –: «قالَ لي النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اقْرَأْ عَلَيَّ، قُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، آقْرَأُ عَلَيْكَ، وعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قالَ: نَعَمْ فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّساءِ حتَّى أتَيْتُ إلى هذِه الآيَةِ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: 41]، قالَ: حَسْبُكَ الآنَ فالْتَفَتُّ إلَيْهِ، فإذا عَيْناهُ تَذْرِفانِ»[2].

وعن جبير بن مطعم – رضي الله عنه – قال: «سَمِعْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقْرَأُ في المَغْرِبِ بالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هذِه الآيَةَ: (أَمْ خُلِقُوا

(1) أخرجه مسلم في صحيحه بنحوه: (772)، وابن ماجه، والنسائي.
(2) متفق عليه.

مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ) [الطور: 35 - 37]، قالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»[1]. وكان جبير وقتئذ على الشرك، فكان لسماعه هذه الآياتِ ما حمله بعد على الدُّخولِ في الإسلامِ.

وعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بنُ حِصْنِ بن حُذَيْفَةَ بن بَدْرٍ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أخيه الحُرِّ بن قَيْسِ بن حِصْنٍ، وكانَ مِنَ النَّفرِ الَّذينَ يُدْنيهِمْ عُمَرُ، وكانَ القُرَّاءُ أصْحَابَ مَجْلسِ عُمَرَ ومُشَاوَرَتِه، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أخيه: يا ابْنَ أخِي، هلْ لكَ وجْهٌ عِنْدَ هذا الأميرِ فَتَسْتَأْذِنَ لي عليه؟ قالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لكَ عليه، قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: فَاسْتَأْذَنَ لِعُيَيْنَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ، قالَ: يا ابْنَ الخَطَّابِ، واللَّهِ ما تُعْطِينَا الجَزْلَ، وما تَحْكُمُ بيْنَنَا بالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ، حتَّى هَمَّ بأَنْ يَقَعَ به، فَقالَ الحُرُّ: يا أمِيرَ المُؤْمِنينَ، إنَّ اللَّهَ تَعَالَى قالَ لِنَبِيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، وإنَّ هذا مِنَ الجَاهِلِينَ، فَوَاللَّهِ ما جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاهَا عليه، وكانَ وقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ»[2].

أما الآن فإن الإذاعات والقنوات تصدح بكتاب الله في كل مكان لكنك لا تكاد تجد له أثرًا في دنيا الناس ومعاملاتهم، بل إن الإذاعة البريطانية الناطقة بالعربية «البي بي سي» دأبت على إذاعة القرآن الكريم عبر أثيرها بلا أدنى ريبٍ أو خوف؛ لأنها علمت تمام اليقين أنها لن تجد

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: (4854).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: (7286).

له بين أغلب المسلمين إلا آذانًا صُمًّا وقلوبًا صلبةً! وما لم يكن للمرء ذهن حاضر وقلب طاهر يتفاعل به لاستقبال الهدايات فلن تنفعه قراءة الآيات أو سماع أعذب التلاوات. قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

التدبر للجميع

وإن مما صد مسلمي اليوم عن تدبر كتاب الله هو التورع الزائف الذي عمل على إشاعة أن التفكر في معاني القرآن حكرٌ على العلماء والمختصين فقط. وما رد فعل الداعين إلى هذا القول إذا ما واجهناهم بأن الأمر بالتدبر قد نزل بالأساس إلى الكفار؟ يقول الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، ويقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24]. أفنترك التدبر للكفار ونمنع عنه المسلمين؟!

الحقيقة أن الأمر بالتدبر أمر عام؛ للمسلمين وغير المسلمين، بل وللناطقين بالعربية ولغير الناطقين بها، وكم رأينا من أعاجم بادروا إلى الإسلام بقراءتهم لترجمة معاني القرآن أو استماعهم للآيات! ومنهم الدكتور موريس بوكاي والدكتور جاري ميلر والشيخ يوسف إستس والدكتور أرثر أليسون والموسيقيّ رحيم جونغ... وغيرهم[1].

وإن أكثر الآثار الواردة في النهي عن الخوض في معاني القرآن آثار ضعيفة، ويردها ما ورد في القرآن والسنة ومرويات الصحابة من الحث

(1) بإمكانك الاطلاع على قصصهم في كتابي باب السعادة.

على التدبر. وبفرض صحة هذه الروايات فإنها تُحمَل على النهي عن التفسير لا التدبر؛ والبَون بينهما شاسع؛ فالتفسير يلزم له أدوات وأصول ودراسات خاصة للقيام به؛ ولذلك فإنه حكر على المتخصصين من أهل العلم. أما التدبر فإنه متاح للجميع؛ كلٌّ بحسب الوسع والطاقة؛ ولذلك يُقال لكل عامل بالقرآن أنه «متدبر» ولا يُقال أنه «مفسر».

قال الدكتور المطيري: «وهو واجب على المؤمنين؛ لأنهم أهل الانتفاع والعمل به، كل منهم بحسب قدراته وطاقاته الإدراكية القابلة للاكتساب والزيادة، فلا يُعذَر أحد بتركه»[1]. وبإمكاننا أن نقسم تدبر المؤمنين إلى ثلاثة أقسام:

1- تدبر عامة المسلمين:

وهو واجب على كل الأمة؛ كل بحسب طاقته وقدراته.

2- تدبر العلماء المتخصصين:

وهو فرض كفاية على أهل العلوم الشرعية واللغوية، بما يُكفَل لهم من أدوات للنظر والاستدلال والعمل على الترجيح واستنباط الأحكام.

3- تدبر الخواص:

وهو اصطفاء من الله لأهل التقوى والورع بفتح باب الفهم والإلهامات كل بحسب حالة قلبه الإيمانية. ومثاله: الخواطر الإيمانية لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي – رحمه الله –.

(1) مبادئ تدبر القرآن الكريم، ص: 39.

وبعد، فإن انتقادي للتورع الزائف لا يعني بالضرورة تحيزي إلى القراءات المفتوحة التي يدعو إليها الحداثيون؛ من التعامل مع القرآن الكريم على كونه نص أدبي أو تاريخي لا بدّ من نزع القداسة عنه وإعلان موت مؤلفه حتى نصل إلى فهمه الصحيح! فذلك ولا شك مما يطيّح بمرجعية القرآن، ويجعله مرتعًا لتحكم الأهواء وليّ عنق نصوصه تحت وطأة اختلاف العقول والأفهام.

وإن كلا الطرفين قد وقع في التشديد بين الإفراط والتفريط فانحرف عن جادة الحق؛ ففريق بالغ في القداسة حتى صد الناس عن محاولة تدبر كتاب الله – ناسفًا أحد أهم مقاصد القرآن الكريم –، وفريق نزع عن كتاب الله القداسة فجعله مرتعًا لكل ناعق – ضاربًا بمرجعية القرآن عرض الحائط –.

والصواب أن التدبر متاحٌ للجميع طالما أن المرء قد التزم بضابطه الشرعي من اعتماد المسلم على مرجعية موثوقة خلال تدبره؛ ككتب غريب القرآن والتفاسير الميسرة للمبتدئين لبيان ما قد يغمض عليه من بعض المعاني، أو لجوء المتدبر إلى سؤال المختصين إن لزم الأمر. ولذلك أنصح كل من أراد أن يبدأ رحلة التدبر بالاستعانة بكتابيّ: (المختصر في التفسير – والتفسير الميسر)؛ لأنهما من أفضل وأيسر ما كُتِبَ في بابهما، أو الانضمام إلى مجالس التدبر التي تعقدها المراكز المتخصصة كالهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

وأما غير الناطقين باللغة العربية فيتم ذلك بالاستناد إلى الترجمات الموثوقة لمعاني القرآن الكريم، وذلك بالرجوع إلى الترجمات الصادرة

عن الأزهر الشريف، ومجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ومشروع ترجمة كتاب المختصر في التفسير التابع لمؤسسة مركز تفسير بالرياض.

ووجب التنبيه إلى أن الاكتفاء بإقامة حروف القرآن لا يغني أبدًا عن إقامة حدوده، وعلى دور التحفيظ المنتشرة في ربوع الدول الإسلامية أن تنتبه إلى أن تخريج آلاف الحفاظ ممن يحفظون القرآن ولا يفقهون شيئًا من معانيه لهو أمر مؤسف ينذر بخطر شديد، ولهذا كان لا بدّ من اعتماد مناهج التدبر جنبًا إلى جنب مع مناهج التحفيظ.

قال الإمام الثعلبي – رحمه الله –: «أما بعد، فإن الله أكرمنا بكريم كتابه، وأنعم علينا بعظيم خطابه، فأنزل علينا بفضله ورحمته القرآن، وجعله مهيمنا على الكتب والأديان، أمر فيه بالحكمة وزجر، وأعذر للحجة وأنذر، ثم لم يرض منا بسرد حروفه دون حفظ حدوده، ولا بإقامة كلماته دون العمل بمحكماته، ولا بتلاوته وقراءته دون تدبر آياته والتفكر في بيناته، وتعلم حقائقه ومعانيه، وتفهم دقائقه ومبانيه، فقيض له رجالا موفقين، حتى صنفوا فيه المصنفات، وجمعوا علومه المتفرقات»[1].

وقال الحسن – رحمه الله –: «قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله: حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا، وقد والله أسقطه

(1) تفسير الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي، (2/ 7)، تحقيق: عدد من الباحثين، دار التفسير، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1436 هـ – 2015 م، [عدد الأجزاء: 33 (آخر 3 فهارس)].

كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء. اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين، وأعذنا من القراء المتكبرين»[1].

وقد حذر الله تعالى من مسلك أهل الكتاب الذين حملوا التوراة فلم يعملوا بما فيها، ووصفهم عز وجل بأشنع توصيف، وأن مثلهم إنما كمثل الحمير. قال عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة 5]. «فلما ذكر الله ما امتن به من بعثة الرسول، ومن إنزال القرآن، ذكر ما كان عليه بعض أتباع موسى عليه السلام من الإعراض عن العمل بما في التوراة؛ تحذيرًا لهذه الأمة من اتباعهم، فقال: مثل اليهود الذين كُلِّفوا القيام بما في التوراة فتركوا ما كُلِّفوا به، كمثل الحمار يحمل الكتب الكبيرة، لا يدري ما حُمِل عليه: أهو كتبٌ أم غيرها؟ قبح مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يوفق القوم الظالمين لإصابة الحق»[2].

فلتحذر أمة الإسلام من هجران كتاب الله والإعراض عن تدبره وفهم معانيه؛ لئلا تقع في المحذور من ترك العمل بما فيه،،، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان 30].

(1) الكشاف للزمخشري، (4/ 90).
(2) المختصر في التفسير، ص: 553.

وتم بحمد الله ومنته وتوفيقه

فجر الخميس الثالث والعشرين من جمادى الأولى لسنة ١٤٤٥ من هجرة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم

الموافق السابع من ديسمبر

لسنة 2023 من الميلاد

الإسكندرية - مصر

المراجع

- القرآن الكريم
- السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام، عناية: حلمي بن إسماعيل الرشيدي، دار العقيدة - الإسكندرية، الطبعة الثانية، 1430. هـ - 2009.م، عدد الأجزاء 4.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420هـ 2000- م.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت 774 هـ)، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1420 هـ - 1999 م، عدد الأجزاء: 8.
- سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - شخصيته وعصره، علي محمد الصلابي، دار العقيدة - مصر، الطبعة الأولى، 1434. هـ - 2013.م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس ودار ابن حزم ببيروت، الطبعة الأولى 1443. هـ - 2021.م، عدد الأجزاء 12.

- القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبدالرحمن بن ناصر السعدى، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، 1420. هـ - 1999.م.
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت 756 هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1996 م، عدد الأجزاء: 4.
- الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت751 هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الثانية، 1393 هـ - 1973 م.
- التفسير الوسيط ، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، الطبعة: فبراير 1998.م، عدد الأجزاء 14.
- تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، 1384 هـ - 1964 م، عدد الأجزاء: 20 جزءا (في 10 مجلدات).
- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1420 هـ [عدد الأجزاء: 32].

• المختصر في تفسير القرآن الكريم، لجماعة من علماء التفسير، دار المختصر للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الخامسة، 1440.هـ.

• معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : 510هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى 1420 هـ، عدد الأجزاء :5.

• مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (ت 518هـ)، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة – بيروت، لبنان، عدد الأجزاء: 2.

• زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – 1422 هـ.

• روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت 1270هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، 1415 هـ، عدد الأجزاء:16.

• نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، دار الشروق – مصر، الطبعة الأولى: 1416. هـ – 1995.م.

- موسوعة نضرة النعيم في أخلاق النبي الكريم ﷺ، مجموعة من العلماء، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة السادسة، 1431. هـ – 2010. م، عدد الأجزاء: 12.
- أسباب النزول، الواحدي، تحقيق: كمال زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1411 هـ.
- بنو إسرائيل في القرآن والسنة، محمد سيد طنطاوي، دار الشروق – مصر، الطبعة الثانية، 1420 .هـ – 2000.م.
- اليسير في اختصار تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق: صلاح عرفات، ومحمد الشنقيطي، وخالد عبد الحميد، دار تفسير للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1443. هـ – 2021.م.
- تفسير الكشاف – (ومعه الانتصاف ومشاهد الإنصاف والكافي الشاف)، محمود بن عمرو بن أحمد المعروف بجار الله الزمخشري، ضبطه وصححه: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث بالقاهرة – دار الكتاب العربي ببيروت، الطبعة: الثالثة 1407 هـ – 1987 م، (عدد الأجزاء: 4).
- التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – السعودية، الطبعة الثانية، مزيدة ومنقحة، 1430هـ – 2009 م.

- التسهيل في علوم التنزيل، ابن جزيّ الكلبي، تحقيق: عبد الله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى – 1416 هـ (عدد الأجزاء 2).
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (المعروف بتفسير أبو السعود)، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي – بيروت، (لم أقف على سنة الطبع) (عدد الأجزاء 9).
- مبادئ تدبر القرآن الكريم، عبد المحسن بن زبن المطيري، مركز تدبر، الرياض، الطبعة الثانية، 1438. هـ – 2017.م.
- تفسير الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: عدد من الباحثين، دار التفسير، جدة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1436 هـ – 2015 م، [عدد الأجزاء: 33 (آخر 3 فهارس)].

مواقع إلكترونية

- الدرر السَنية – الموسوعة الحديثية https://dorar.net/hadith
- الأنبا تكلا – الكتاب المقدس
https://st-takla.org/Holy-Bible_.html
- جريدة **Times of Israel**
https://www.timesofisrael.com/
- موقع **BBC** بالعربي https://www.bbc.com/arabic

فهرس المحتويات

إهداء 5
شكر ومحبة 7
مقدمة 9
التأمل الأول: الكثرة لا تغلب الشجاعة 11
التأمل الثاني: ابن وقته 20
التأمل الثالث: قد أفلح من زكاها 25
التأمل الرابع: جبر الخواطر 30
التأمل الخامس: أمة وسطًا 38
التأمل السادس: أبهذا أُمِرتُم؟! 45
التأمل السابع: زينة كل أمر 51
التأمل الثامن: كيف حالك في الرخاء؟ 59
التأمل التاسع: كيف حالك في الشدة؟ 66

التأمل العاشر: الحكمة ضالة المؤمن 79
التأمل الحادي عشر: لسنا معصومين 86
جملة من انحرافات أهل الكتاب كما رواها القرآن 89
الانحراف الأول: العنصرية والغرور 91
الانحراف الثاني: سوء الأدب مع الله عز وجل 96
الانحراف الثالث: الوثنية 102
الانحراف الرابع: بيع الدين بالدنيا 109
الانحراف الخامس: معاداة أولياء الله وعباده الصالحين 121
الانحراف السادس: الحسد 129
الانحراف السابع: التكالب على الدنيا والجبن عن الجهاد 133
الانحراف الثامن: الجدال بالباطل وكثرة السؤال 137
الانحراف التاسع: قسوة القلوب 141
الانحراف العاشر: الإفساد في الأرض 144
التأمل الثاني عشر: ليسوا سواء 160
التأمل الثالث عشر: التدبر للجميع 166
المراجع 175